

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة لونيبي علي - البليدة 2 -

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

مطبوعة محاضرات في مقياس نظرية النظم السنة الثانية ماستر

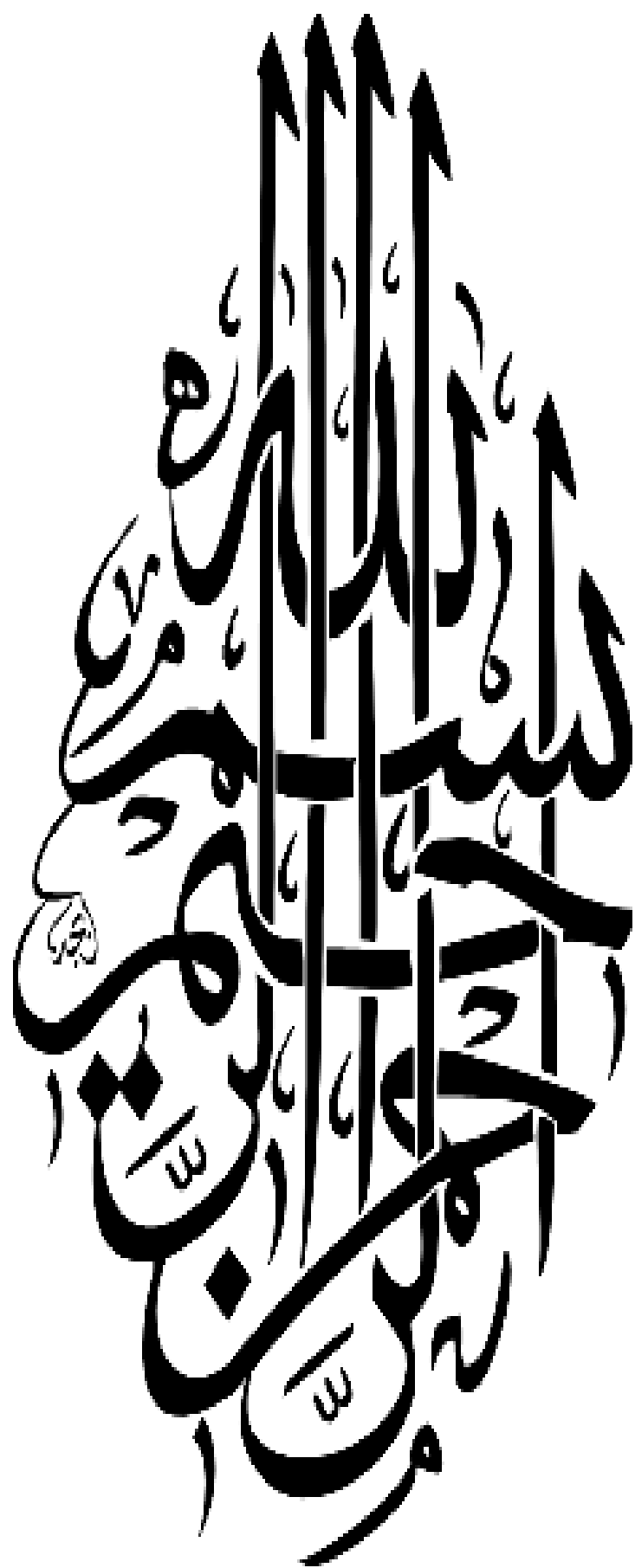
تخصص لسانيات عربية

في إطار التحضير لملف التأهيل إلى الأستاذية

إعداد الدكتورة:

فاطمة الزهراء نهمار

السنة الجامعية : 2019 / 2020



مقدمة:

الحمد لله الذي علّم القرآن، خلق الإنسان، علّمه البيان، والصلاة والسلام على محمد خاتم الأنبياء وعلى آله وأصحابه الأتقياء أمّا بعد:

فهذه المطبوعة هي خلاصة قراءاتي واطلاعاتي في مجال نظرية النظم العربية يفيد الطلبة بالدرجة الأولى ، يضم مجموعة من المحاضرات التي ألقيتها على طلبتي الأعزاء السنة الثانية ماستر، فهي يعطيهم نظرة سريعة وعميقة وشاملة عن فكرة النظم التي عرفت أوج ازدهارها على يد عبد القاهر الجرجاني الذي وضع لها الأسس والقواعد والمعالم ، مستفيدا من مسيرته العلمية الشاقة والطويلة متعلما ومطلعا وناظرا في كتب سابقيه وباحثا في قضايا عصره ، فتولّد عن ذلك " نظرية النظم" دون أن يصطلح عليها بـ " النظرية"، وقد تقاطعت أفكارها كثيرا مع النظريات الغربية الحديثة لاسيما البينية والتوليدية والتحويلية والأسلوبية وغيرها .

تناولت هذه المطبوعة مجموعة من المحاضرات فبدأت الحديث عن تعريف النظم في اللغة والاصطلاح ، ثم علاقته بالقرآن الكريم وعلوم البلاغة وعلمي النحو والصرف ، بعدها انتقلت إلى نظرة بعض العلماء الأجلاء الذين سبقوا عبد القاهر الجرجاني إلى النظم أمثال : سيبويه والجاحظ وابن قتيبة والمبرد وأبي هلال العسكري، لتتوقف وقفة عند عبد القاهر الجرجاني متحدثا عن حياته ومسيرته العلمية و مؤلفاته المشهورة ونظرته إلى النظم والأسس التي يبنى عليها ، وكذا رأيه في الفصاحة والبلاغة وعلاقة النظم بمعاني النحو، لتعرّج على ابن خلدون وكيف نظر إلى نظم الشعر والنثر ومفهومه للملكة والمنوال ، كما تكلمت عن بعض نقاط التقاطع بين بعض النظريات الحديثة كالبنينية والتوليدية والتحويلية ونظرية الأسلوب.

فإنّ أصبنا فبفضل الله تعالى ومَنّهُ علينا وإنّ أخطأنا فحسبنا المحاولة ، والله الموفق للسداد و الصواب وإليه المرجع والمآب.

المحاضرة الأولى: مفهوم النظم بدايات أولى

* المفهوم اللغوي للنظم :

جاء تعريف مصطلح النظم في العديد من المعاجم العربية منذ القدم ، فأول معجم تناول ذلك هو معجم العين للفراهيدي، بعدها توالى تعريفاته في معاجم كثيرة ، وكلها تجمع على أنّ النظم يعني الجمع والتأليف والتنسيق نذكر منها بحسب الترتيب الزمني:

1 - معجم العين:

يعرّف الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت170هـ) النظم فيقول: " النَّظْمُ نَظْمُكَ خَرَزاً بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ فِي نِظَامٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى قِيلَ: لَيْسَ لِأَمْرِهِ نِظَامٌ، أَيْ لَا تَسْتَقِيمُ طَرِيقَتُهُ. وَالنِّظَامُ: كُلُّ خَيْطٍ يُنْظَمُ بِهِ لَوْلُؤٌ أَوْ غَيْرُهُ فَهُوَ نِظَامٌ، وَالْجَمِيعُ نُظْمٌ، وَفِعْلُكَ النَّظْمَ وَالنَّظْمُ، قَالَ: مِثْلُ الْفَرِيدِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى النَّظْمِ «53» وَالْإِنْتِظَامُ: الْإِتْسَاقُ".¹

2 - معجم تاج اللغة وصحاح العربية:

يقول الجوهري (ت393هـ): "نظمت اللؤلؤ، أي جمعته في السلك والتنظيم مثله. ومنه نظمت الشعر ونظمته. والنظام: الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ. ونظم من لؤلؤ، وهو في الأصل مصدر. وجاءنا نظم من جراد، وهو الكثير. ويقال لثلاثة كواكب من الجوزاء نظم. والانتظام: الاتساق".²

3- معجم مقاييس اللغة:

¹ الفراهيدي الخليل بن أحمد: العين، دار ومكتبة الهلال، ج8، ص165 و166

² الجوهري: تاج اللغة وصحاح العربية، دار العلم للملايين ، بيروت، ط4، ج5، 1407هـ و1987، ص2041

عرّفه أحمد بن فارس (ت395هـ) فقال: " النُّونُ وَالظَّاءُ وَالْمِيمُ: أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى تَأْلِيفِ شَيْءٍ وَتَأْلِيفِهِ، وَنَظَمْتُ الْخَرَزَ نَظْمًا، وَنَظَمْتُ الشَّعْرَ وَغَيْرَهُ. وَالنِّظَامُ: الْخَيْطُ يَجْمَعُ الْخَرَزَ"¹.

4 - لسان العرب:

عرّفه ابن منظور (ت711هـ) فقال: " التَّأْلِيفُ، نَظَمَهُ يَنْظِمُهُ نَظْمًا وَنِظَامًا وَنَظَّمَه فَاَنْتَظَمَ وَتَنْظَمَ. وَنَظَمْتُ اللَّوْلُوَ أَيَّ جَمَعْتُهُ فِي السِّلَكِ، وَالتَّنْظِيمُ مِثْلُهُ، وَمِنْهُ نَظَمْتُ الشَّعْرَ وَنَظَّمْتُهُ، ... وَالنَّظْمُ: الْمَنْظُومُ، وَصَفْتُ بِالْمَصْدَرِ. وَالنَّظْمُ: مَا نَظَمْتَهُ مِنْ لَوْلُؤٍ وَخَرَزٍ وَغَيْرِهِمَا، ... وَالنِّظَامُ: مَا نَظَمْتُ فِيهِ الشَّيْءَ مِنْ خَيْطٍ وَغَيْرِهِ، ... اللَّيْثُ: النَّظْمُ نَظْمُكَ الْخَرَزَ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ فِي نِظَامٍ وَاحِدٍ، ... وَالنِّظَامُ: الْخَيْطُ الَّذِي يُنْظَمُ بِهِ اللَّوْلُوُ، وَكُلُّ خَيْطٍ يُنْظَمُ بِهِ لَوْلُؤٌ أَوْ غَيْرُهُ فَهُوَ نِظَامٌ، وَجَمَعُهُ نُظْمٌ؛ وَقَالَ: مِثْلُ الْفَرِيدِ الَّذِي يَجْرِي مَتَى النَّظْمُ

وفعلك النَّظْمُ وَالتَّنْظِيمُ. وَنَظَمْتُ مِنْ لَوْلُؤٍ، قَالَ: وَهُوَ فِي الْأَصْلِ مَصْدَرٌ، وَالْإِنْتِظَامُ: الْإِتِّسَاقُ"².

5- التعريفات :

يعرّف الشريف الجرجاني (ت816هـ) النظم بقوله: " النظم: في اللغة جمع الؤلؤ في السلك، وفي الاصطلاح: تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل، وقيل: الألفاظ المترتبة المسوقة المعتبرة دلالاتها على ما يقتضيه العقل."³.

6 - تاج العروس :

عرّفه الزبيدي (ت1204هـ) بقوله: "النَّظْمُ: التَّأْلِيفُ وَضَمُّ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَرْنَتْهُ بِآخَرٍ فَقَدْ نَظَمْتَهُ... (و) النَّظْمُ: (الْمَنْظُومُ) بِاللُّوْلُؤِ وَالْخَرَزِ وَصَفْتُ بِالْمَصْدَرِ، يُقَالُ: نَظَمْتُ مِنْ لَوْلُؤٍ... (و)نَظَمَ اللَّوْلُوُ يَنْظِمُهُ نَظْمًا وَنِظَامًا) ، بِالْكَسْرِ

ابن فارس أحمد : مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، ج5، ص 443¹

² ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، ج12، ص578

³ الجرجاني الشريف: التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1401هـ و1983، ص242

(وَنَظَّمَهُ) تَنْظِيمًا: (أَلَفَهُ وَجَمَعَهُ فِي سِلَكٍ فَانْتَظَمَ وَتَنَظَّمَ) ، وَمِنْهُ: نَظَمْتُ الشَّعْرَ وَنَظَّمْتُهُ، وَنَظَّمَ الْأَمْرَ عَلَى الْمَثَلِ، وَلَهُ نَظْمٌ حَسَنٌ، وَدُرٌّ مَنْظُومٌ وَمُنَظَّمٌ.¹

* المفهوم الاصطلاحي:

إذا عرفنا بأنَّ النظم هو الجمع والترتيب والتأليف والتنسيق " فَإِنَّ جُلَّ الَّذِينَ تَكَلَّمُوا عَنْهُ أَوْ أَوْمَأُوا إِلَيْهِ قَبْلَ عَبْدِ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيِّ مِنْ لُغَوِيِّينَ وَبَلَاغِيِّينَ وَمُؤَلِّفِي كُتُبِ الْإِعْجَازِ إِنْ كَانُوا قَدْ أَدْرَكُوا شَأْنَهُ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَصِيبُوا حَقِيقَتَهُ، عَدَا مَا نَجَدَهُ مِنْ تَطْبِيقَاتٍ مَتَنَّا بَيْنَ ثَنَائِهَا الْكُتُبَ، وَأَهَمُّ مِلَاحَظَةٍ هِيَ كَلَامُهُمْ عَنِ النَّظْمِ مُرَبَّوْطًا بِالْإِعْجَازِ الْقِرَآئِيِّ. وَالدَّارِسُ لِلنَّظْمِ سَوَاءٌ أَكَانَ مُصْطَلِحًا أَمْ نَظْرِيَّةً عِلْمِيَّةً فَإِنَّهُ يَشْعُرُ بِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ النَّظْمَ ضَارِبٌ بِجُذُورِهِ فِي أَعْمَاقِ الْفِكْرِ الْإِنْسَانِيِّ ، فَكُلُّ الْأَمَمِ قَدْ عَرَفُوهُ وَأَشَادُوا بِهِ، وَجَعَلُوهُ مَعْيَارَ الْجَمَالِ فِي كُلِّ مَا حَذَقُوهُ مِنْ أَعْمَالٍ فَنِيَّةٍ أَوْ دَرَسَاتٍ أَدْبِيَّةٍ " ² .

" فَالْيُونَانِيُّونَ قَدْ أَشَارُوا إِلَيْهِ، إِذْ يَتَحَدَّثُ عَنْهُ صَاحِبُ كِتَابِ "فَنَ الشَّعْرِ" ³ فِي مَعْرُضٍ ذَكَرَهُ أَقْسَامَ الْكَلِمَةِ وَالْفُرُوقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَقَاطِعِ وَالْحُرُوفِ وَالْأَصْوَاتِ الَّتِي رَأَاهَا ضَرُورِيَّةً لِلْبَلَاغَةِ، كَمَا أَشَارَ فِي كِتَابِهِ "الْخُطَابَةُ" ⁴ إِلَى ضَرُورَةِ مِرَاعَاةِ الرُّوَابِطِ بَيْنَ الْجُمَلِ وَالْأَسْلُوبِ وَحَذْفِ أَدَوَاتِ الْفَصْلِ وَالتَّكْرَارِ، مُحَاوَلًا اتِّخَاذَ مَعَايِيرٍ يُمِيزُ بِمُوجِبِهَا بَيْنَ الْأَسَالِيبِ " ⁵ .

" أَمَّا الْهِنْدُ فَقَدْ اِهْتَمَّوْا بِالنَّظْمِ، وَمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ الْجَاحِظُ عَنِ الصَّحِيفَةِ الْهِنْدِيَّةِ وَمَا جَاءَ فِيهَا مِنْ أَصُولٍ تَتَّصِلُ بِالْأَسْلُوبِ وَالْخُطِيبِ، وَمَا ذَكَرَهُ الْبِيروني من

¹ الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، ج33، ص496

² أرفيس بلخير: نظرية النظم بين الأصل النظري والبعد الفكري ، دط، دت ، ص9

³ أرسطو : فن الشعر، ترجمة عبد الرحمن بدوي، القاهرة، 1959، ص55

⁴ أرسطو: فن الخطابة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، القاهرة، 1953، ص185

⁵ أرفيس بلخير: نظرية النظم بين الأصل النظري والبعد الفكري، 19

محاولات بلاغية في تراث الهند وتاريخهم خاصة ما اتصل بقضية الإعجاز في كتابهم الديني¹ " 2 .

أما في التراث العربي لعلّ أقدم نص تناول النظم يُقارن فيه بين صناعة القول وصناعة الذهب والفضة نجده في كتاب الأدب الصغير صاحبه ابن المقفع (ت142هـ) يقول فيه : " فَإِذَا خَرَجَ النَّاسُ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ عَمَلٌ أَصِيلٌ وَأَنْ يَقُولُوا قَوْلًا بَدِيعًا؛ فَلْيَعْلَمْ الْوَاصِفُونَ الْمُخْبِرُونَ أَنَّ أَحَدَهُمْ - وَإِنْ أَحْسَنَ وَأَبْلَغَ - لَيْسَ رَأِيًا عَلَى أَنْ يَكُونَ كَصَاحِبِ فُصُوصٍ وَجَدَ يَأْقُوتًا وَزَبْرَجَدًا وَمَرْجَانًا، فَنَظَّمَهُ فَلَانِدَ (1) وَسُمُوطًا (2) وَأَكَالِيلَ (3)، وَوَضَعَ كُلَّ فَصٍّ مَوْضِعَهُ، وَجَمَعَ إِلَى كُلِّ لَوْنٍ شِبْهَهُ وَمَا يَزِيدُهُ بِذَلِكَ حُسْنًا، فَسَمِيَ بِذَلِكَ صَانِعًا (4) رَفِيقًا. وَكَصَاغَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ صَنَعُوا مِنْهَا مَا يُعْجِبُ النَّاسَ مِنَ الْحُلِيِّ وَالْأَنِيبَةِ. وَكَالْنَحْلِ وَجَدَتْ ثَمَرَاتٍ أَخْرَجَهَا اللَّهُ طَيِّبَةً، وَسَلَكَتْ سُبُلًا جَعَلَهَا اللَّهُ ذُلُلًا؛ فَصَارَ ذَلِكَ شِفَاءً وَطَعَامًا وَشَرَابًا مَنْسُوبًا إِلَيْهَا، مَذْكُورًا بِهِ أَمْرُهَا وَصَنَعْتُهَا. فَمَنْ جَرَى عَلَى لِسَانِهِ كَلَامٌ يَسْتَحْسِنُهُ أَوْ يَسْتَحْسِنُ مِنْهُ، فَلَا يَعْجَبَنَّ إِعْجَابَ الْمُخْتَرِعِ الْمُتَبَدِّعِ؛ فَإِنَّهُ إِنَّمَا اجْتَنَاهُ كَمَا وَصَفْنَا.³

والملاحظ أنّ البلاغيين الذين تناولوا هذا القول لم يشاروا إلى ابن المقفع، أضف إلى ذلك فرغم تداول مصطلح النظم عند العديد من النحاة والبلاغيين ومؤلفي كتب الإعجاز وما ألفت من كتب إلا أنّ آرائهم لم ترق إلى جعل النظم نظرية بمفهومها الكامل ولم تر النور إلا في القرن الرابع الهجري حين ازدهار دراسات إعجاز القرآن الكريم فخصوصا في بيئة الأشاعرة والمعتزلة ، كما أنّ هناك من الكتب الهامة المعنونة بـ " نظم القرآن " لم تصلنا منها ما كتبه كل من الحسن بن علي بن نصر الطوسي (ت308هـ) ، وابن زيد البلخي (ت322هـ)، وأحمد بن علي

¹ أحمد خليل : المدخل إلى دراسة البلاغة العربية، بيروت، 1968، ص52

² أرفيس بلخير: نظرية النظم بين الأصل النظري والبعد الفكري ، ص10

ابن المقفع: الأدب الصغير، دار ابن القيم، الإسكندرية، دت ، ص23³

الأخشيدي(ت326هـ) ، وهناك كتاب وحيد يجمع بين النظم والإعجاز القرآني وهو
لمحمد بن يزيد الواسطي عنونه ب" إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه" ¹ .

ينظر: أرفيس بلخير: نظرية النظم بين الأصل النظري والبعد الفكري ، ص10 و ¹11

المحاضرة الثانية: النظم والقرآن الكريم

* أصول النظم عند علماء الإعجاز:

اهتم علماء العرب بالقرآن الكريم اهتماما بالغاً قل نظيره، فبذلوا فيه أقصى جهودهم للحفاظ عليه وفهم مقاصده ومعانيه والتدبر فيها واستخراج كنوزه التي انبثقت منها علوم لم تكن معروفة آنذاك، ويعد أيضاً المصدر الأول لظهور فكرة النظم ونسجها وتطورها عبر حقب زمنية مختلفة.

" إنَّ النظم كنظرية لم ير النور ولم يعرف الطريق الصحيح إلا في ارتباطه بالإعجاز القرآن الكريم، وأنَّ جل المؤلفات التي عُنوانت بـ " نظم القرآن " لم ترق إلى الوصف العلمي الدقيق الذي يبرز ماهية النظم وآلياته، ويكشف عن مراحلها وخطواته، فكانت أحكاماً ذوقية وآراء سطحية غلبت الجانب الديني على الجانب العقلي، لتصل إلى أنَّ القرآن الكريم معجز بنظمه، إلا عبد القاهر الذي عنون كتابه " دلائل الإعجاز " انطلق من فكرة أنَّ القرآن معجز وغداً باحثاً عن صورته، وكاشفاً عن طريقه، ليصل بطريقة عقلية إلى النظم " ¹ .

وقد مثَّل بلخير أرفيس علاقة علماء الإعجاز بالقرآن الكريم بالمخطط الآتي :

رحلة الإعجاز	المنطلق	الإجراء	النتيجة
الإعجاز قبل عبد القاهر الجرجاني	نظم القرآن	أحكام انطباعية	القرآن معجز
عند عبد القاهر الجرجاني	القرآن معجز	قواعد علمية	نظم القرآن

أرفيس بلخير: نظرية النظم بين الأصل النظري والبعد الفكري ، ص 23¹

تعود البذرة الأولى للنظم كوجه إعجازي إلى ابن قتيبة (ت276هـ) إذ يرى أن القرآن معجز بالنظم فيقول مدافعا عن فكرته: " وقطع منه بمعجز التأليف أطماع الكائدين، وأبانه بعجيب النظم عن حيل المتكلفين " ¹، وهو بهذا يرجع النظم إلى المعاني البلاغية المعتمدة على جودة التصوير ودقة التعبير ²، وهو أمر لا يعرفه " من كثر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خصّ الله به لغتها دون جميع اللغات، فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة، والبيان، واتساع المجال، ما أوتيته العرب " ³.

يوافقه في ذلك الطبري (ت310هـ) إذ هو الآخر يرى أن إعجاز القرآن يكمن في نظمه فيقول: " ومن أشرف تلك المعاني التي فصل بها كتابنا سائر الكتب قبله، نظم العجيب ورصفه الغريب (2) وتأليفه البديع؛ الذي عجزت عن نظم مثل أصغر سورة منه الخطباء، وكلت عن وصف شكل بعضه البلغاء، وتحيرت في تأليفه الشعراء " ⁴.

كما تناول الرماني (ت383هـ) إعجاز القرآن فتكلم عن البيان والتأليف والنظم فقال : " وحسن البيان في الكلام على مراتب: فأعلاها مرتبة ما جمع أسباب الحسن في العبارة من تعديل النظم حتى يحسن في السمع ويسهل على اللسان وتتقبله النفس تقبل البرد ، وحتى يأتي على مقدار الحاجة فيما هو حقه من المرتبة. " ⁵، والشيء الذي أضافه هو حديثه عن محدودية دلالة الأسماء والصفات فقال : " ودلالة الأسماء والصفات متناهية ، فأما دلالة التأليف فليس لها نهاية ، ولهذا صار التحدي فيها بالمعارضة لتظهر المعجزة ، ولو قال قائل ، قد انتهى تأليف الشعر حتى لا يمكن

¹ ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، تح إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية ، بيروت، ص11

² ينظر: أرفيس بلخير: نظرية النظم بين الأصل النظري والبعد الفكري، ص12

³ ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، ص17

⁴ الطبري : جامع البيان في تأويل القرآن، تحق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1 ، ج1، 1420هـ و

2000، ص199

الرماني : النكت في إعجاز القرآن ، دار المعارف، مصر، ط3 ، 1976م، ص107 ⁵

أحدا أن يأتي بقصيدة إلاّ وقد قيلت فيما قيل لكان ذلك باطلا ، لأنّ دلالة التأليف ليس لها نهاية كما أنّ الممكن من العدد ليس له نهاية يوقف عندها لا يمكن أن يزداد عليها. والقرآن كلّهُ في نهاية حسن البيان"¹ .

أمّا الخطابي(ت388هـ) فقد أقرّ في مواضع عديدة على أنّ القرآن الكريم معجز بنظمه ، والسر في ذلك حسب رأيه أنّه جاء بأفصح لفظ وأحسن نظم وأصح معنى فيقول: " واعلم أنّ القرآن إنّما صار معجزاً لأنّه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظم التأليف مضمناً أصح المعاني "² ، وفي موضع آخر يكون شارحا فيقول: " وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشدّ تلاؤماً وتشاكلاً من نظمهِ. وأمّا المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها. والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها."³ .

ونجده في موضع آخر يرى بأنّ النظم ليس بالأمر السهل ولا الهين بل يحتاج حسب رأيه إلى مجموعة من الشروط فيقول : " وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحدق فيها أكثر لأنها لجام الألفاظ وزمام المعاني وبه تنتظم أجزاء الكلام ، ويلتئم بعضه ببعض فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان. وإذا كان الأمر في ذلك على ما وصفناه فقد علم أنه ليس المفرد بذرب اللسان وطلاقة كافياً لهذا الشأن ، ولا كل من أوتي حظاً من بديهة وعارضة كان ناهضاً بحمله ومضطرباً بعبئه ما لم يجمع إليها سائر الشرائط التي ذكرناها على الوجه الذي حددناه "⁴ .

وإذا انتقلنا إلى الباقلاني فإننا نجده هو الآخر يُصرّح بأنّ القرآن الكريم إعجازه يكمن في النظم فيقول: " إنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه..⁵ " ، بعدها يُفصّل ذلك قائلا: " وذلك أن نظم

الرماني : النكت في إعجاز القرآن ، ص 107¹

² الخطابي : بيان إعجاز القرآن، دار المعارف، مصر، ط 3 ، 1976م، ص27

² الخطابي : بيان إعجاز القرآن، ص27

المرجع نفسه ، ص 37⁴

الباقلاني: إعجاز القرآن ،دار المعارف ، القاهرة ، دت، ص 35⁵

القرآن على تصرف وجوهه وتباين مذاهبه، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد"¹.

خصّص الباقلاني فصلا للحديث عن كيفية الوقوف على إعجاز القرآن فيقول: "إنّه لا يقف عليه إلّا مَنْ عرف معرفة بيّنة وجوه البلاغة العربية، وتكوّنت له فيها ملكة يقيس بها الجودة والرداءة في الكلام بحيث يميّز بين نمط شاعر وشاعر، ونمط كاتب وكاتب، وبحيث يعرف مراتب الكلام في الفصاحة، وهذا كما يميز أهل كل صناعة صنعتهم "ومتى تقدم الإنسان في هذه الصنعة لم تخف عليه هذه الوجوه، ولم تشبيه عنده هذه الطرق، فهو يميز قدر كل متكلم بكلامه، وقدر كل كلام في نفسه، ويحكم فيه بما يستحق من الحكم، وإن كان المتكلم يجود في شيء دون شيء عرف ذلك منه، وإن كان يعم إحسانه عرف."².

وخلاصة القول فهذه ثلّة من العلماء الذين تناولوا القرآن الكريم وإعجازه وارتباطه بفكرة النظم التي لم تصل إلى مقام نظرية تقوم على أسس عقلية وعلمية يحسب لها ألف حساب في الفكر اللغوي الحديث إلا على يد عبد القاهر الجرجاني .

المحاضرة الثالثة:

النظم وعلوم اللغة (علوم البلاغة)

الباقلاني: إعجاز القرآن ، ص 35¹

المرجع نفسه ، ص 151²

1- علاقة النظم بعلم المعاني :

يعرّف علم المعاني بـ "تتبع خواص تراكييب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره ، وأعني بتراكيب الكلام التراكيب الصادرة عن له فضل تمييز ومعرفة وهي تراكيب البلغاء لا الصادرة عن سواهم لنزولها في صناعة منزلة أصوات حيوانات تصدر عن مجالها بحسب ما يتفق، وأعني بخاصية التركيب ما يسبق منه على الفهم عند سماع ذلك التركيب جارياً مجرى اللازم له لكونه صادراً عن البليغ لا لنفس ذلك التركيب من حيث هو أو لازماً له هو هو حيناً وأعني بالفهم فهم ذي الفطرة السليمة " ¹.

تحدّث الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز" عن موضوعات علم المعاني التي جعلها علامات هذا الإعجاز وأسسها ودلائله، مفصّلاً القول فيها ومستشهداً بشواهد تؤكد ذلك منها: التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والقصر والاختصاص، والفصل والوصل، والإظهار والإضمار، والتعريف والتكثير، والفصاحة والبلاغة، والخبر وغيرها ، وسنتحدث عن ثلاث منها :

* التقديم والتأخير :

يقول الجرجاني مبرزاً أهميته البالغة فيقول: " هو بابٌ كثيرُ الفوائد، جَمُّ المحاسن، واسعُ التصرّف، بعيدُ الغاية، لا يزالُ يَفْتَرُّ لك عن بدِيعَةٍ، ويُفْضِي بكَ إلى لطيفة، ولا تزالُ ترى شعراً يروِّقُكَ مسمَعُهُ، ويلطّفُ لَدَيْكَ موقعُهُ، ثم تنظرُ فتجدُ سببَ أن راقَكَ ولطفَ عندكَ، أن قُدِّمَ فيه شيءٌ، وحُوِّلَ اللفظُ عن مكانٍ إلى مكانٍ. " ².

بعدها يقسم التقديم والتأخير إلى قسمين فيقول: " واعلم أنّ تقديم الشيء على وجهين: تقديم يُقال إنه على نيّة التأخير ... كقولك: "منطلق زيد" و "ضرب عمرًا

السكاكي: مفتاح العلوم ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط2، 1407هـ و1987، ص 161¹

² الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، تحق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ط3، 1413هـ

و1992 ص106

زيد"، معلوم أن "منطلق" و "عمراً" لم يخرجا بالتقديم عما كانا عليه، من كون هذا خبر مبتدأ ومرفوعاً بذلك، وكون ذلك مفعولاً ومنصوباً من أجله ... وتقديم لا على نيّة التأخير، ولكن على أن تنقل الشيء عن حكم إلى حكم، وتجعل له باباً غير بابهِ، وإعراباً غير إعرابه، وذلك أن تجيء إلى اسمين يُحتمل كل واحدٍ منهما أن يكون مبتدأ ويكون الآخر خبراً له، فنقدّم تارةً هذا على ذاك، وأخرى ذاك على هذا. ومثاله ما تصنعه بزيد والمنطلق، حيث تقول مرة: "زيد المنطلق"، وأخرى، "المنطلق زيد"، فأنت في هذا لم تقدّم "المنطلق" على أن يكون متروكاً على حكمه الذي كان عليه مع التأخير، فيكون خبر مبتدأ كما كان، بل على أن تنقله عن كونه خبراً إلى كونه مبتدأ، وكذلك لم تؤخر "زيداً" على أن يكون مُبتدأ كما كان، بل على أن تُخرجه عن كونه مبتدأ إلى كونه خبراً.¹

* الحذف:

يبدأ فيه بذكر فوائده من دقة المسلك ولطف المأخذ ويشبهه بالسحر فيقول: " هو بابٌ دقيقُ المسلك، لطيفُ المأخذ، عجيبُ الأمر، شبيهٌ بالسحر، فإنك ترى به تزكِ الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجذك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبين."²، مركزاً على حذف المبتدأ وحذف المفعول به من حيث المواضع والأحكام .

وقد دعم أقواله بشواهد قرآنية وشعرية وأمثلة نحوية تؤكد الأثر البلاغي الذي يتركه في الكلام ، ففي حذف المبتدأ يقول : " وهذه جملةٌ قد تُنكرها حتى تُخبر، وتدفعها حتى تنتظر، وأنا أكتبُ لك بديئاً أمثلةً ممّا عَرَضَ فيه الحذف، ثم أنبهك على صحة ما أشرتُ إليه، وأقيمُ الحجةَ من ذلك عليه. أنشد صاحب الكتاب:

اعْتَادَ قَلْبُكَ مِنْ لَيْلَى عَوَائِدُهُ ... وَهَاجَ أَهْوَاؤُكَ الْمَكْنُونَةَ الطَّلُلُ
رَبَعَ قَوَاءَ أَذَاعِ الْمُعْصِرَاتُ بِهِ ... وَكُلُّ حَيْرَانَ سَارٍ مَأْوُهُ خَضِلُ²

الرجلاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز ، ص 107¹

المصدر نفسه، ص 145²

قال: أرَادَ، "ذَاكَ رَبُّهُ قَوَاءً أَوْ هُوَ رَبُّهُ".¹

أَمَّا عَنْ حَذْفِ الْمَفْعُولِ بِهِ فَيَقُولُ: " فَإِنْ أَتْبَعُ ذَلِكَ ذَكَرَ الْمَفْعُولِ بِهِ إِذَا حُذِفَ خُصُوصاً، فَإِنَّ الْحَاجَةَ إِلَيْهِ أَمْسٌ، وَهُوَ بِمَا نَحْنُ بِصَدَدِهِ أَخْصُ، وَاللَّطَائِفُ كَأَنَّهَا فِيهِ أَكْثَرُ، وَمِمَّا يَظْهَرُ بِسَبَبِهِ مِنَ الْحُسْنِ وَالرَّوْنَقِ أَعْجَبٌ وَأَظْهَرُ".²

وَمِنَ الدَّوَاعِي إِلَى حَذْفِ الْمَفْعُولِ بِهِ إِثْبَاتُ مَعْنَى الْفِعْلِ لَا غَيْرَ، وَمِثَالُهُ: " فَلَانْ يَحُلْ وَيَعْقُدْ، وَيَأْمُرْ وَيَنْهَى، وَيُضَرُّ وَيَنْفَعُ"، وَكَقَوْلِهِمْ: "هِيَ يُعْطَى وَيُجْزَلُ، وَيُقْرَى وَيُضَيَّفُ"، الْمَعْنَى فِي جَمِيعِ ذَلِكَ عَلَى إِثْبَاتِ الْمَعْنَى فِي نَفْسِهِ لِلشَّيْءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَعَلَى الْجُمْلَةِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِحَدِيثِ الْمَفْعُولِ، حَتَّى كَأَنَّكَ قُلْتَ: "صَارَ إِلَيْهِ الْحُلُّ وَالْعَقْدُ، وَصَارَ بِحَيْثُ يَكُونُ مِنْهُ حَلٌّ وَعَقْدٌ، وَأَمْرٌ وَنَهْيٌ، وَضَرٌّ وَنَفْعٌ"، وَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ".³

وَنَجِدُ هَذَا النُّوعَ مِنَ الْحَذْفِ وَارِدًا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9] " الْمَعْنَى: هَلْ يَسْتَوِي مَنْ لَهُ عِلْمٌ وَمَنْ لَا عِلْمَ لَهُ؟ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَقْصِدَ النَّصُّ عَلَى مَعْلُومٍ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى {هُوَ الَّذِي يُخَيِّ وَيُمِيتُ} [غافر: 68]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى، وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا} [القمر: 43، 44] وَقَوْلُهُ {وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى}، [القمر: 48]، الْمَعْنَى هُوَ الَّذِي مِنْهُ الْإِحْيَاءُ وَالْإِمَاتَةُ وَالْغِنَاءُ وَالْإِقْنَاءُ. وَهَكَذَا كُلُّ مَوْضِعٍ كَانَ الْقَصْدُ فِيهِ أَنْ تَتَبَّطَّ الْمَعْنَى فِي نَفْسِهِ فَعَلًا لِلشَّيْءِ، وَأَنْ تَخْبَرَ بِأَنَّ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ، أَوْ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْهُ، أَوْ لَا يَكُونُ مِنْهُ، فَإِنَّ الْفِعْلَ لَا يُعَدَّى هُنَاكَ، لِأَنَّ تَعْدِيَتَهُ تَنْقُضُ الْغَرَضَ وَتُغَيِّرُ الْمَعْنَى".⁴

* الخبر :

¹ المصدر السابق، ص 146

² المصدر نفسه، ص 153

³ المصدر نفسه، ص 154

⁴ المصدر نفسه، ص 154 و 155

أفاض فيه الحديث متكماً عن تقسيماته وفروقه، فعالج الأمور الآتية : الاسم والفعل في الإثبات، والتعريف والتكثير في الإثبات، والقصر في التعريف ونكت أخرى، والتعريف بالذي، وكذا الفروق في الحال.

قسم الخبر إلى قسمين : " أول ما ينبغي أن يُعلم منه أنه ينقسم إلى خبرٍ هو جزءٌ من الجملة لا تتم الفائدة دونَه³، وخبرٍ ليس بجزءٍ من الجملة، ولكنه زيادةٌ في خبرٍ آخر سابقٍ له. فالأول خبرٌ المبتدأ، كمُنطَلَقٌ في قولك: "زيدٌ مُنطَلَقٌ"، والفعلُ كقولك: "خرجَ زيدٌ"، فكلُّ واحدٍ من هذين جزءً من الجملة، وهو الأصل في الفائدة والثاني هو الحال: كقولك: "جاءني زيدٌ راكباً"، وذاك لأنَّ الحالَ خبرٌ في الحقيقة، مِنْ حيثُ إنك تُثَبِّتُ بها المعنى لذي الحال، كما تُثَبِّتُ بخبرِ المبتدأ للمبتدأ، وبالفعل للفاعل. ألا تَرَكَ قد أثبتَّ "الركوبَ" في قولك: "جاءني زيدٌ راكباً" لزيدٍ؟ إلا أنَّ الفرقَ أنك جُنِّتَ به لتزيدَ معنىً في إخبارك عنه بالمجيء، وهو أن تجعلَه بهذه الهيئة في مجيئه، ولم تُجرِدْ إثباتك للركوب ولم تُباشِرْه به، بل ابتدأتَ فأثبتَّ المجيء، ثم وصلتَ به الركوبَ فالتبسَ به الإثباتُ على سبيل التَّبَعِ للمجيء، وبشَرَطَ أن يكونَ في صِلَتِهِ. وأمَّا في الخبر المطلق نحو: "زيد منطلق" و "خرج عمرو"، فإنك مُثَبِّتٌ للمعنى إثباتاً جَرَّدْتَهُ له، وجعلتَه يُبَاشِرُهُ من غيرِ واسطَةٍ، ومن غيرِ أن تتسبب بغيره إليه، فأعرفه "

1.

يجعل الجرجاني هذين القسمين أصلاً لمعرفة الفروق في الخبر، منها الفرق بين الإثبات إذا كان اسماً وبينه إذا كان فعلاً فيقول: " وهو فرقٌ لطيفٌ تَمَسُّ الحاجة في علم البلاغة إليه"²، و " وبيانه، أن موضوعَ الاسم على أن يُثَبِّتَ به المعنى للشيء من غير أن يَقْتَضِيَ تجددَه شيئاً بعدَ شيء. وأمَّا الفعلُ فموضوعُه على أنه يقتضي تجددَ المعنى المُثَبِّتَ به شيئاً بعدَ شيء". فإذا قلت: "زيدٌ منطلقٌ"، فقد أثبتَّ الانطلاقَ فعلاً له، من غير أن تجعلَه يَتَجَدَّدُ ويَحْدُثُ منه شيئاً فشيئاً، بل يكونُ المعنى فيه كالمعنى في قولك: "زيدٌ طويلٌ"، و "عمرو قصيرٌ": فكما لا تقصد هاهنا إلى أن تجعلَ

الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص 173¹

المصدر نفسه، ص 174²

الطول أو القصر يتجدد ويحدث، بل توجبهما وتثبتهما فقط، وتقتضي بوجودهما على الإطلاق، كذلك لا تتعرض في قولك: "زيدٌ منطلقٌ" لأكثر من إثباته لزيد . وأمّا الفعل، فإنه يُقصدُ فيه إلى ذلك، فإذا قلت: "زيدٌ ها هو ذا ينطلقُ"، فقد زعمت أن الانطلاق يقعُ منه جزءاً فجزءاً، وجعلته يُزاوله ويُرجّيه ¹.

وسنأخذ أمثلة أخرى تتعلق بفروقه في الحال إذا كانت الجملة مكونة من مبتدأ وخبر فيقول: "والقول في ذلك أن الجملة إذا كانت من مبتدأ وخبر، فالغالب عليها أن تجيء مع "الواو" كقولك: "جاءني زيد وعمرو أمامه" و "أتاني وسيفه على كتفه"، فإن كان المبتدأ من الجملة ضمير ذي الحال، لم يصلح بغير "الواو" البتة، وذلك كقولك: "جاءني زيدٌ وهو راكب" و "رأيت زيداً وهو جالس"، و "دخلت عليه وهو يملئ الحديث" و "انتهيت إلى الأمير وهو يعبئ الجيش"، فلو تركت "الواو" في شيء من ذلك لم يصلح. فلو قلت: "جاءني زيدٌ هو راكب"، و "دخلت عليه هو يملئ الحديث"، لم يكن كلاماً ².

* التعريف والتنكير:

ونجد ذلك في فصل تقديم النكرة على الفعل وعكسه وهو في حالة الاستفهام فيقول الجرجاني مبينا الفروق النظمية : "إذا قلت: "أجاءك رجل؟"، فأنت تريد أن تسأله هل كان مجيء من واحد من الرجال إليه، فإن قدّمت الاسمَ فقلت: "أ رجلٌ جاءك؟"، فأنت تسأله عن جنس من جاءه، أ رجلٌ هو أم امرأة؟ و يكونُ هذا منك إذا كنتَ علمتَ أنه قد أتاه آتٍ، ولكنّك لم تعلم جنسَ ذلك الآتي، فسبيلك في ذلك سبيلك إذا أردتَ أن تعرفَ عينَ الآتي فقلت: "أزيدٌ جاءك أم عمرو؟". و لا يجوز تقديم الاسم في المسألة الأولى، لأنّ تقديمَ الاسم يكون إذا كان السؤال عن الفاعل، والسؤال عن الفاعل يكون إمّا عن عينه أو عن جنسه، ولا ثالث. وإذا كان كذلك، كان مُحالاً أن تُقدّم الاسمَ النكرة وأنّ لا تريد السؤال عن الجنس، لأنّه لا يكونُ لسؤالك حينئذٍ متعلّق، من حيث لا يبقى بعد الجنس إلا العين. والنكرة لا تدلُّ على عينٍ شيءٍ فيُسأل بها

¹ المصدر السابق، ص174

² المصدر نفسه ، ص202

عنه. فإن قلت: "أرجل طويل جاءك أم قصير؟"، كان السؤال عن أن الجاني كان، من جنس طوال الرجال أم قصارهم؟ فإن وصفت النكرة بالجملة فقلت: "أرجل كنت عرفت من قبل أعطاك هذا أم رجل لم تعرفه"، كان السؤال عن المغطي، أكان ممن عرفه قبل، أم كان إنساناً لم تتقدم منه معرفة له.¹

وقد أشار الجرجاني إلى ذلك عندما تحدّث عن فروق الخبر في الإثبات فقال: "من فروق الخبر في الإثبات، وأمثله: ومن فروق الإثبات أنك تقول: "زيد منطلق" و "زيد المنطلق" و "المنطلق زيد"، فيكون لك في كلّ واحد من هذه الأحوال غرض خاص وفائدة لا تكون في الباقي. وأنا أفسر لك ذلك. اعلم أنك إذا قلت: "زيد منطلق"، كان كلامك مع من لم يعلم أن انطلافاً كان، لا من زيد ولا من عمرو، فأنت تُقيده ذلك ابتداءً. وإذا قلت: "زيد المنطلق" كان كلامك مع من عرف أن انطلافاً كان، إما من زيد وإما من عمرو، فأنت تُعلمه أنه كان من زيد دون غيره.²

* القصر والاختصاص:

تكلم الجرجاني عن ذلك في مسائل "إنما" و "ما" و "إلا" ووضع فروقا بينها، إذ يرى أن ليس كل كلام يصلح فيه "إنما" يصلح فيه "ما" و "إلا" فيقول: "اعلم أنهم، وإن كانوا قد قالوا هذا الذي كتبته لك، فإنه لم يعنوا بذلك أن المعنى في هذا هو المعنى في ذلك بعينه، وأن سبيلهما سبيل اللفظين يوضعان لمعنى واحد. وفرق بين أن يكون في الشيء معنى الشيء، وبين أن يكون الشيء الشيء على الإطلاق. يُبين لك أنهما لا يكونان سواء، أنه ليس كل كلام يصلح فيه "ما" و "إلا"، يصلح فيه "إنما". ألا ترى أنها لا تصلح في مثل قوله تعالى: {وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ} [آل عمران: 62]، ولا نحو قولنا: "ما أحد إلا وهو يقول ذك"، إذ لو قلت: "إنما من إله الله" و "إنما أحد وهو يقول ذك"، قلت ما لا يكون له معنى.³

الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص 143¹

المصدر نفسه، ص 177²

المصدر نفسه، ص 329³

يوصل الشرح قائلاً : " فإن قلت: إن ذلك أن "أحداً" لا يقع إلا في النفي وما يجري مجرى النفي من النهي والاستفهام، وأن "من" المزیدة في "ما من إله إلا الله"، كذلك لا تكون إلا في النفي. قيل: ففي هذا كفاية، فإنه اعتراف بأن ليسا سواء، لأنهما لو كانا سواء لكان ينبغي أن يكون في "إنما" من النفي مثل ما يكون في "ما" و "إلا" وكما وجدت "إنما" لا تصلح فيما ذكرنا، كذلك تجد "ما" و "إلا" لا تصلح في ضرب من الكلام قد صلحت فيه "إنما"، وذلك في مثل قولك: "إنما هو درهم لا دينار"، لو قلت: "ما هو إلا درهم لا دينار"، لم يكن شيئاً. وإذ قد بان بهذه الجملة أنهم حين جعلوا "إنما" في معنى "ما" و "إلا"، لم ينعوا أن المعنى فيهما واحد على الإطلاق، وأن يسقطوا الفرق فإني أبين لك أمرهما، وما هو أصل في كل واحد منهما، بعون الله وتوفيقه " ¹.

فمن مواضع "إنما" أنها تأتي في خبر لا يجهله المخاطب وإنما يعلمه ، وتفسير ذلك كما يقول الجرجاني : " "إنما"، تجيء لخبر لا يجهله المخاطب، وتفسير ذلك: 390 - اعلم أن موضوع "إنما" على أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته، أو لا ينزل هذه المنزلة. تفسير ذلك أنك تقول للرجل: "إنما هو أخوك" و "إنما هو صاحبك القديم": لا تقوله لمن يجهل ذلك ويدفع صحته، ولكن لمن يعلمه ويعرف به، إلا أنك تريد أن تنبّهه للذي يجب عليه من حق، الأخ وحُرمة الصاحب، ومثله قوله:

إنما أنت والد، والأب القا ... طع أحنى من واصل الأولاد

لم يرد أن يعلم كافوراً أنه والد، ولا ذاك مما يحتاج كافور فيه إلى الإعلام، ولكنه أراد أن يذكره منه بالأمر المعلوم ليبني عليه استداء ما يوجب كونه بمنزلة الوالد. ومثل ذلك قولهم: "إنما يعجل من يخشى الفوت"، وذلك أن من المعلوم الثابت في النفوس أن من لم يخشى الفوت لم يعجل. ومثاله من التنزيل قوله تعالى: {إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ} [الأنعام: 36]، وقوله عز وجل: {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ

¹ المصدر السابق ، ص 229

وَحَشِيَ الرَّحْمَنُ بِالْغَيْبِ { [يس: 11]، وقوله تعالى: {إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا} [النازعات: 45]، كل ذلك تذكيرٌ بأمرٍ ثابتٍ معلومٍ. وذلك أن كلَّ عاقلٍ يَعْلَمُ أَنَّهُ لا تكونُ استجابة إلا ممن يسمع ويعقل ما يقال له ويُدعى إليه، وأنَّ مَنْ لم يَسْمَعْ ولم يعقل لم يَسْتَجِبْ. وكذلك معلومٌ أَنَّ الإنذارَ إنما يكونُ إنذاراً ويكونُ له تأثيرٌ، إذا كان مع مَنْ يُؤْمِنُ بالله وَيَخْشَاهُ وَيُصَدِّقُ بالبعثِ والساعةِ، فأما الكافرُ الجاهلُ، فالإنذارُ وتَرْكُ الإنذارِ معه واحدٌ. فهذا مثالُ ما الخبرُ فيه خبرٌ بأمرٍ يعلمُه المخاطَبُ ولا يُنْكِرُهُ بحالٍ.¹

ليختم هذا الباب بالتنبيه إلى شيء غامض ودقيق لموضع "إنما" فيقول: " وهذا موعض فيه دقةٌ وغموضٌ، وهو ممَّا لا يكادُ يقع في نفسه أحد أنه ينبغي أن يتعرض سبببه، ويُبحثَ عن حقيقة الأمر فيه. وممَّا يجبُ لك أن تجعله على ذكرٍ منك من معاني "إنما"، ما عَرَفْتَكُ أولاً مِنْ أَنَّهَا قد تَدْخُلُ في الشيء على أن يُحَيَّلَ فيه المتكلمُ أَنَّهُ معلومٌ، ويدَّعي أَنَّهُ مِنَ الصِّحَّةِ بحيث لا يدفع دافعٌ، كقوله:

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ اللَّهِ

وَمَنْ اللطيفِ في ذلك قولُ قَتَبِ بنِ حصن:

ألا أيها الناهي فزارة بعد ما ... أجدت لغزو، إنما أنت حالم

ومن ذلك قوله تعالى حكايةً عن اليهود: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} [البقرة: 11]، دخلت "إنما" لتدلَّ على أَنَّهُمْ حين ادَّعَوْا لأنفسهم أَنَّهُمْ مُصْلِحُونَ، أظهروا أَنَّهُمْ يدَّعون من ذلك أمراً ظاهراً معلوماً، ولذلك أكيد الأمر في تكذيبهم والردِّ عليهم، فجمعَ بين "ألا" الذي هو للتنبيه، وبين "إنَّ" الذي هو للتأكيد، فقول: {أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ} [البقرة: 12].²

¹ الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص 330 و 331

المصدر نفسه ، ص 357 و 358²

* الفصل والوصل :

هذا الباب له علاقة وطيدة بحروف العطف ومعانيها ، وهذا وارد من خلال قوله : " اعلم أن العلم بما ينبغي أن يُصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة، تُستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة، ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخُص، وإلا قَوْمٌ طُبِعُوا على البلاغة، وأوتوا فنّاً من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد. وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حدّاً للبلاغة، فقد جاء عن بعضهم أنه سُئل عنها فقال: "معرفة الفصل من الوصل"، ذاك لغموضه ودقة مسلكه، وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد، إلا كَمَلَ لسائر معاني البلاغة".¹

جعل الجرجاني عطف الجمل على ضربين فيقول : " فإنَّ الجملَ المعطوفَ بعضُها على بعضٍ على ضربين: أحدهما: أن يكونَ للمعطوفِ عليها موضعٌ من الإعراب، وإذا كانت كذلك، كان حكمها حكم المفرد، إذ لا يكون للجملة موضع من الإعراب حتى تكونَ واقعة موقعَ المفرد، وإذا كانت الجملة الأولى واقعة موقعَ المفرد، كان عطفُ الثانية عليها جاريةً مجرى عطف المفرد على المفرد، وكان وجهُ الحاجة إلى "الواو" ظاهراً، والإشراكُ بها في الحُكم موجوداً، فإذا قلت: "مررتُ برجلٍ خُلِقَ حَسَنٌ وخُلِقَ قبيحٌ" كنتَ قد أشركتَ الجملةَ الثانيةَ في حُكم الأولى، وذلك الحُكم كونُها في موضعٍ جرٍّ بأنَّها صفةٌ للنكرة. ونظائرُ ذلك تكثرُ، والأمرُ فيها يسهلُ".²

أمّا عن الضرب الثاني وهو الذي يشكل أمره " وذلك أن تعطفَ على الجملة العاريةِ الموضعِ من الإعرابِ جملةً أخرى، كقولك: "زيد قائم، وعمرو قاعد" و "العلم حسنٌ، والجهل قبيحٌ"، لا سبيلَ لنا إلى أن ندعي أن "الواو" أشركتَ الثانيةَ في إعراب قد وجب للأولى بوجه من الوجه. وإذا كان كذلك، فينبغي أن تعلمَ المطلوبُ من هذا العطفِ والمغزى منه، ولمَ لمَ يَسْتَوِ الحالُ بين أن تعطفَ وبين أن تدعَ العطفَ فتقول:

¹ المصدر السابق ، ص222

المصدر نفسه ، ص 223²

"زيد قائم، عمرو قاعد"، بعد أن لا يكون هنا أمر معقول يؤتى بالعطف ليشارك بين الأولى والثانية فيه؟¹.

فسبب الإشكال الوارد في الضرب الثاني بحسبه هو حرف العطف الواو ، ليعطينا بعدها معاني حروف العطف فيقول : "واعلم أنه إنما يعرض الإشكال في "الواو" دون غيرها من حروف العطف، وذلك لأن تلك تقيّد مع الإشارك معاني، مثل أن "الفاء" توجب الترتيب من غير تراخ، و "ثم" توجيه مع تراخ، و "أو" تردّد الفعل بين شيئين وتجعله لأحدهما لا بعينه، فإذا عطفت بواحدة منها الجملة على الجملة، ظهرت الفائدة، فإذا قلت: "أعطاني فشكرته"، ظهر بالفاء أن الشكر كان مُعقَّباً على العطاء ومسبباً عنه وإذا قلت: "خرجت ثم خرج زيد"، أفادت "ثم" أن خروجه كان بعد خروجي، وأن مُهَلَّة وقعت بينهما وإذا قلت: "يعطيك أو يكسوك"، دلّت "أو" على أنه يفعل واحداً منهما لا بعينه"².

يوصل كلامه ويرى أن ليس للواو " معنى سوى الإشارك في الحكم الذي يقتضيه الإعراب الذي أتبع فيه الثاني الأول. فإذا قلت: "جاءني زيد وعمرو" لم تعد بالواو شيئاً أكثر من إشارك عمرو في المجيء الذي أثبتّه لزيد، والجمع بينه وبينه، ولا يتصور إشارك بين شيئين حتّى يكون هناك معنى يقع ذلك الإشارك فيه. وإذا كان ذلك كذلك، ولم يكن معنا في قولنا: "زيد قائم وعمرو قاعد" معنى تزعم أن "الواو" أشركت بين هاتين الجملتين فيه، ثبت إشكال المسألة "³.

وقد الجرجاني لذلك بأمثلة توضيحية من بنات أفكاره فقال : "واعلم أنه إذا كان المخبر عنه في الجملتين واحداً كقولنا: "هو يقول ويفعل، ويضّر وينفع، ويسيء ويحسن، ويأمر وينهى، ويحلّ ويعقد، يأخذ ويعطي، ويبيع ويشترى، يأكل ويشرب" وأشباه ذلك، ازداد معنى الجمع في "الواو" قوة وظهوراً، وكان الأمر حينئذٍ صريحاً.

¹ الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز ، ص223

² المصدر نفسه ، ص224

³ المصدر نفسه ، ص224

وذلك أَنَّك إذا قلت: "هو يَضُرُّ وينفع"، كنت قد أفدت "بالواو" أَنَّك أوجبت له الفعلين جميعاً، وجعلته يفعلهما معاً، ولو قلت: "يَضُرُّ ينفع": من غير "واو" لم يجب ذلك، بل قد يجوز أن يكون قولك "ينفع"، رجوعاً من قولك "يضرُّ" وإبطالاً له.

وإذا وقع الفعلان في مثل هذه في الصلة، ازداد الاشتباك والاقتران حتى لا يتصور تقدير أفراد في أحدهما عن الآخر، وذلك في مثل قولك: "العجب من أني أحسنت وأساءت" و "يكفيك ما قلت وسمعت" و "أحسن أن تنتهي عن شيء وتأتي مثله؟"، وذلك أنه لا يشتبه على عاقل أن المعنى على جعل الفعلين في حكم فعل واحد. ومن البين في ذلك قوله:

لا تَطْمَعُوا أَنْ تُهَيِّنُونَا وَنُكْرِمَكُم ... وَأَنْ نَكْفَ الْأَذَى عَنْكُم وَتُؤْذُونَا

المعنى: لا تظمعو أن تروا إكرامنا قد وجد مع إهانتكم، وجامعها في الحصول.¹

ومن الشواهد القرآنية التي جعلها لطائف دقيقة الآية الواحد والعشرون من سورة يوسف فيقول: "ومن اللطيف في ذلك قوله تعالى: {مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ} [يوسف: 21]، وذلك أن قوله: {مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ}، مشابه لقوله: {مَا هَذَا بَشَرًا} ومُداخل في ضمنه من ثلاثة أوجه: وجهان هو فيهما شبهة بالتأكيد، ووجه هو فيه شبهة بالصفة.²

فالوجه الأول "كونه شبيهاً بالتأكيد، هو أنه إذا كان ملكاً لم يكن بشراً، وإذا كان كذلك كان، إثبات كونه ملكاً تحقيقاً لا محالة، وتأكيذاً لنفي أن يكون بشراً.³

والوجه الثاني تمثل في كون "أن الجاري في العرف والعادة أنه إذا قيل: ما هذا بشراً وما هذا بآدمي" والحال حال تعظيم وتعجب مما يشاهد في الإنسان من حسن خلق أو خلق أن يكون الغرض والمراد من الكلام أن يقال إنه ملك، وأنه يُكنى به عن ذلك، حتى إنه يكون مفهوم اللفظ، وإذا كان مفهوماً من اللفظ قبل أن يُذكر، كان ذكره إذا ذكر تأكيداً لا محالة، لأنَّ حَدَّ "التأكيد" أن تحقق باللفظ معنى قد فهم

¹ المصدر السابق، ص 226

المصدر نفسه، ص 229²

المصدر نفسه³

مِنْ لَفْظٍ آخَرَ قَدْ سَبَقَ مِنْكَ. أَفَلَا تَرَى: أَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ "كُلُّهُمْ" فِي قَوْلِكَ: "جَاءَنِي الْقَوْمُ كُلُّهُمْ" تَأْكِيداً مِنْ حَيْثُ كَانَ الَّذِي فُهِمَ مِنْهُ، وَهُوَ الشُّمُولُ، قَدْ فُهِمَ بَدِئاً مِنْ ظَاهِرِ لَفْظِ "الْقَوْمِ"، وَلَوْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فُهِمَ الشُّمُولُ مِنْ لَفْظِ "الْقَوْمِ"، وَلَا كَانَ هُوَ مِنْ مَوْجِبِهِ، لَمْ يَكُنْ "كُلُّ" تَأْكِيداً، وَلَكَانَ الْمَشْمُولُ مُسْتَفَاداً مِنْ "كُلِّ" ابْتِدَاءً.¹

أَمَّا عَنِ الْوَجْهِ الثَّالِثِ الشَّبِيهِ بِالصِّفَةِ "فَهُوَ أَنَّهُ إِذَا نَفَى أَنْ يَكُونَ بَشَراً، فَقَدْ أَثْبَتَ لَهُ جِنْسَ سِوَاهُ، إِذْ مَنْ الْمُحَالِ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ جِنْسِ الْبَشَرِ، ثُمَّ لَا يَدْخُلُ فِي جِنْسٍ آخَرَ. وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، كَانَ إِثْبَاتُهُ "مَلَكاً" تَبْيِيناً وَتَعْيِيناً لَذَلِكَ الْجِنْسِ الَّذِي أُريدَ إِدْخَالُهُ فِيهِ، وَإِغْنَاءُ عَنْ أَنْ تَحْتَاجَ إِلَى أَنْ تَسْأَلَ فَقُولَ: "إِنْ لَمْ يَكُنْ بَشَراً، فَمَا هُوَ؟ وَمَا جِنْسُهُ؟" كَمَا أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: "مَرَرْتُ بِزَيْدِ الظَّرِيفِ" كَانَ "الظَّرِيفُ" تَبْيِيناً وَتَعْيِيناً لِلَّذِي أَرَدْتَ مِنْ بَيْنَ مَنْ لَهُ هَذَا الْاسْمُ، وَكَنْتَ قَدْ أَغْنَيْتَ الْمَخَاطَبَ عَنِ الْحَاجَةِ إِلَى أَنْ يَقُولَ: "أَيُّ الزَّيْدِينَ أَرَدْتَ؟" ²

بعدها يعطينا خلاصة لأقواله في مجال فصل الجمل ووصلها فيقول: " وَإِذْ قَدْ عَرَفْتَ هَذِهِ الْأَصُولَ وَالْقَوَانِينَ فِي شَأْنِ فَصْلِ الْجُمْلِ وَوَصْلِهَا، فَاعْلَمْ أَنَّا قَدْ حَصَلْنَا مِنْ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْجُمْلَ عَلَى ثَلَاثِ أَصْرِبَ:

جُمْلَةٌ حَالُهَا مَعَ الَّتِي قَبْلَهَا حَالُ الصِّفَةِ مَعَ الْمَوْصُوفِ وَالتَّأْكِيدِ مَعَ الْمُؤَكَّدِ، فَلَا يَكُونُ فِيهَا الْعَطْفُ الْبَتَّةَ، لِشَبْهِ الْعَطْفِ فِيهَا، لَوْ عَطِفْتَ، بَعَطْفِ الشَّيْءِ عَلَى نَفْسِهِ. وَجُمْلَةٌ حَالُهَا مَعَ الَّتِي قَبْلَهَا حَالُ الْاسْمِ يَكُونُ غَيْرَ الَّذِي قَبْلَهُ، إِلَّا أَنَّهُ يُشَارِكُهُ فِي حُكْمٍ، وَيَدْخُلُ مَعَهُ فِي مَعْنَى، مِثْلَ أَنْ يَكُونَ كِلَا الْأَسْمَيْنِ فَاعِلاً أَوْ مَفْعُولاً أَوْ مُضَافاً إِلَيْهِ، فَيَكُونُ حَقُّهَا الْعَطْفُ. وَجُمْلَةٌ لَيْسَتْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْحَالِينَ، بَلْ سَبِيلُهَا مَعَ الَّتِي قَبْلَهَا سَبِيلُ الْاسْمِ مَعَ الْاسْمِ لَا يَكُونُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ، فَلَا يَكُونُ إِيَّاهُ وَلَا مُشَارِكاً لَهُ فِي مَعْنَى، بَلْ هُوَ شَيْءٌ إِذَا ذُكِرَ لَمْ يُذَكَّرْ إِلَّا بِأَمْرِ يَنْفَرِدُ بِهِ، وَيَكُونُ ذَكَرُ الَّذِي قَبْلَهُ وَتَرَكَ الذَّكَرَ سِوَاءً فِي حَالِهِ، لِعَدَمِ التَّعْلُقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ رَأْساً. وَحَقُّ هَذَا تَرَكَ الْعَطْفَ الْبَتَّةَ.

المصدر السابق ، ص 230¹

المصدر نفسه ، ص 230²

فَتَرَكُ العطفِ يكونُ إمَّا للاتصالِ إلى الغايةِ أو الانفصالِ إلى الغايةِ والعطفُ لما هو واسطةٌ بينَ الأمرينِ، وكانَ له حالٌ بينَ حالينِ، فاعرفه.¹

2- علم البيان :

يعرّف ب " معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه"².

تطرق الجرجاني في كتابيه إلى مسائل عديدة من علم البيان، ففي " أسرار البلاغة " عرض الاستعارة و الكناية و التشبيه والتمثيل والمجاز ليكشف عن مدى جماليتها والأثر البلاغي وأسرار ذلك، مؤكداً أنّ ذلك لا يتحقق إلا بتبيين أقسامها والفروق الدقيقة الكائنة فيما بينها، ثم معرفة القوي منها والضعيف ، فكان له قصب السبق في هذه الموضوعات، أمّا في كتابه " دلائل الإعجاز " فقد أعاد الكلام عن تلك الموضوعات مبيناً ارتباطها بالنظم والمعاني .

وتلك القضايا التي تكلم عنها جعلها من مقتضيات النظم فقال: " بل ذلك يقتضي دخول الاستعارة ونظائرها فيما هو به مُعْجَزٌ؛ وذلك لأنّ هذه المعاني التي هي "الاستعارة"، و"الكناية" و"التمثيل"، وسائر ضروب "المجاز" مِنْ بَعْدِهَا مِنْ مُقْتَضِيَاتِ "النظم"، وعنه يحدث وبه يكون؛ لأنه لا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَدْخُلَ شَيْءٌ مِنْهَا فِي الْكَلِمِ وهي أفرادٌ لم يُتَوَخَّ فيما بينها حُكْمٌ مِنْ أَحْكَامِ النَحْوِ؛ فلا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ ههنا "فعلٌ" أو "اسمٌ" قد دَخَلَتْهُ الاستعارة، مِنْ دُونِ أَنْ يَكُونَ قد أُلْفَ مع غيره؛ أفلا ترى أنه إِنْ قَدَّرَ فِي "اشتعل" من قوله تعالى: {وَاشْتَعلَ الرَّأْسُ شَيْبًا} [مريم: 4]، أَنْ لَا يَكُونَ "الرأس"، فاعلاً له، وَيَكُونَ "شيباً" منصوباً عنه عَلَى التَّمْيِيزِ، لَمْ يُتَصَوَّرْ أَنْ يَكُونَ مستعاراً؟ وهكذا السبيلُ في نظائر "الاستعارة"، فاعرف ذلك "³.

الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز ، ص 243¹

السكاكي: مفتاح العلوم ، ص 162²

الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص 393³

ومن مميزات الكناية والاستعارة والمجاز الاتساع والتفنن فيقول : " اعلم أنَّ لهذا الضرب اتساعاً وتفنناً لا إلى غايةٍ، إلاَّ أنَّه على اتساعه يدور في الأمر الأعم على شيئين: "الكناية" و"المجاز" ¹، وللتمثيل على ذلك سنأخذ أقواله عن تلك المقتضيات :

* الكناية :

يشرح معنى الكناية مبرزاً بلاغتها فيقول : " والمراد بالكناية ههنا أن يُريد المتكلم إثباتَ معنىٍّ من المعاني، فلا يذكرُه باللفظِ الموضوعِ له في اللغة، ولكنَّ يجيءُ إلى معنى هو تاليه وردُّفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلاً عليه، مثال ذلك قولهم: "هو طويلُ النَّجاد"، يريدونَ طويلَ القامة "وكثيرُ رَمادِ القَدَر" يَعنون كثيرَ القرى وفي المرأة: "تَقُومُ الضُّحى"، والمرادُ أنها مُتَرَفَّةٌ مَحْدُومَةٌ، لها مَنْ يَكفِيها أَمْرُها، فقد أرادوا في هذا كُلِّه، كما تَرى، معنى، ثمَّ لم يذكُروه بلفظه الخاصِّ به، ولكنَّهم توَصَّلوا إليه بِذِكْرِ معنىٍّ آخرٍ مِنْ شأنِه أن يَرُدُّفه في الوجود، وأنَّ يكونَ إذا كانَ. أَفلا تَرى أنَّ القامةَ إذا طالت طالَ النَّجادُ؟ وإذا كَثُرَ القرى كَثُرَ رَمادُ القَدَر؟ وإذا كانتِ المرأةُ مُتَرَفَّةً لها مَنْ يَكفِيها أَمْرُها، رَدِّف ذلك أنَّ تنامَ إلى الضُّحى". ²

* التشبيه والتمثيل :

وفي موضع آخر نجده يتحدث عن التشبيه والتمثيل شارحاً وممثلاً ، فعن التشبيه يقول: " وههنا أصلٌ يجبُ ضبطُه وهو أنَّ جَعَلَ المشبَه المشبَه به على ضربين: أحدهما: أن تُنْزِلَه مَنزِلَةَ الشَّيْءِ تَذْكُرُه بأمرٍ قد ثَبَتَ له، فأنتَ لا تحتاجُ إلى أن تَعْمَلَ في إثباتِه وتَرْجِيئِه، وذلك حيثُ تُسْقِطُ ذَكَرَ المشبَه من البين، ولا تَذْكُرُه بوجهٍ مِنَ الوجوه، كقولك "رأيتُ أسداً". والثاني: أن تَجْعَلَ ذلكَ كالأمرِ الذي يَحْتَاجُ إلى أن تَعْمَلَ في إثباتِه وتَرْجِيئِه، وذلك حيث تجري اسم المشبه به خبراً على المشبه، فتقول: "زيدٌ

المصدر السابق ، ص 66¹

المصدر نفسه ، ص 66²

أَسَدٌ، وَزَيْدٌ هُوَ الْأَسَدُ" أَوْ تَجِيءُ بِهِ عَلَى وَجْهِ يَرْجِعُ إِلَى هَذَا كَقَوْلِكَ: "إِنْ لَقِيتَهُ لَقِيتَ بِهِ أَسَدًا، وَإِنْ لَقِيتَهُ لَيَلْقَيْتَكَ مِنْهُ الْأَسَدُ" فَأَنْتَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ تَعْمَلُ فِي إِثْبَاتِ كَوْنِهِ "أَسَدًا" أَوْ "الْأَسَدُ"، وَتَضَعُ كَلَامَكَ لَهُ. وَأَمَّا فِي الْأَوَّلِ فَتُخْرِجُهُ مَخْرَجَ مَا لَا يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى إِثْبَاتٍ وَتَقْرِيرٍ. وَالْقِيَاسُ يَقْتَضِي أَنْ يُقَالَ فِي هَذَا الضَرْبِ أَغْنَى مَا أَنْتَ تَعْمَلُ فِي إِثْبَاتِهِ وَتَرْجِيئِهِ: أَنَّهُ تَشْبِيهُ عَلَى حَدِّ الْمُبَالِغَةِ، وَيَقْتَصِرُ عَلَى هَذَا الْقَدْرِ⁴، وَلَا يُسَمَّى "استعارة".¹

وَأَمَّا التَّمَثِيلُ فَهُوَ الْآخِرُ يَكُونُ مَجَازًا "لِمَجِيئِكَ بِهِ عَلَى حَدِّ الِاسْتِعَارَةِ، فَمِثَالُهُ قَوْلُكَ لِلرَّجُلِ يَتَرَدَّدُ فِي الشَّيْءِ بَيْنَ فَعْلِهِ وَتَرْكِهِ: "أَرَاكَ تَقْدُمُ رَجُلًا وَتَتَوَخَّرُ أُخْرَى" فَالْأَصْلُ فِي هَذَا: أَرَاكَ فِي تَرَدُّدِكَ كَمَنْ يُقَدِّمُ رَجُلًا وَيُؤَخِّرُ أُخْرَى، ثُمَّ اخْتَصِرَ الْكَلَامُ، وَجُعِلَ كَأَنَّهُ يُقَدِّمُ الرَّجُلَ وَيُؤَخِّرُهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ، كَمَا كَانَ الْأَصْلُ فِي قَوْلِكَ: "رَأَيْتُ أَسَدًا" رَأَيْتُ رَجُلًا كَالْأَسَدِ، ثُمَّ جُعِلَ كَأَنَّهُ الْأَسَدُ عَلَى الْحَقِيقَةِ".²

* الِاسْتِعَارَةُ :

يَعْرِفُهَا فَيَقُولُ : " أَنْ تُرِيدَ تَشْبِيَهَ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ، فَتَدَّعِ أَنْ تُفْصَحَ بِالتَّشْبِيهِ وَتُظْهِرَهُ، وَتَجِيءَ إِلَى اسْمِ الْمَشَبَّهِ بِهِ فَتُغَيِّرَهُ الْمِشَبَّهَ وَتُجَرِّيَهُ عَلَيْهِ. تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ: رَأَيْتُ رَجُلًا هُوَ كَالْأَسَدِ فِي شَجَاعَتِهِ وَقُوَّةِ بَطْشِهِ سَوَاءً"، فَتَدَّعِ ذَلِكَ وَتَقُولَ: "رَأَيْتُ أَسَدًا". وَضَرْبُ آخَرٍ مِنْ "الِاسْتِعَارَةِ"، وَهُوَ مَا كَانَ نَحْوَ قَوْلِهِ: إِذْ أَصْبَحْتُ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمَامُهَا¹

هَذَا الضَرْبُ، وَإِنْ كَانَ النَّاسُ يَضْمُونَهُ إِلَى الْأَوَّلِ حَيْثُ يَذْكُرُونَ الِاسْتِعَارَةَ، فَلَيْسَ سَوَاءً. وَذَلِكَ أَنَّكَ فِي الْأَوَّلِ تَجْعَلُ الشَّيْءَ الشَّيْءَ لَيْسَ بِهِ، وَفِي الثَّانِي لِلشَّيْءِ الشَّيْءَ لَيْسَ لَهُ. تَفْسِيرُ هَذَا: أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: "رَأَيْتُ أَسَدًا"، فَقَدْ ادَّعَيْتَ فِي إِنْسَانٍ أَنَّهُ أَسَدٌ،

المصدر السابق، ص 68¹

المصدر نفسه ، ص 68 و 69²

وجعلته إياه، ولا يكون الإنسان أسداً. وإذا قلت: "إذا أصبحت بيد الشمال زمامها"، فقد ادّعت أن للشمال يداً، ومعلوم أنه لا يكون للريح يد.¹

يرى عبد القاهر الجرجاني أن للاستعارة بدائع ولطائف ، ومن الأقوال الدالة على ذلك ما يلي :

✓ القول الأول :

" اعلم أن من شأن هذه الأجناس أن تجرى به الفضيلة، وأن تتفاوت التفاوت الشديد، أفلا ترى أنك تجد في الاستعارة العامي المبتذل¹، كقولنا: "رأيت أسداً، ووردتُ بحراً، ولقيتُ بَدراً" والخاصي النادر الذي لا تجده إلا في كلام الفحول، ولا يقوى عليه إلا أفراد الرجال، كقوله: وسالتُ بأعناقِ المطيِّ الأباطحُ أراد أنها سارتُ سيراً حثيثاً في غابة السرعة، وكانت سرعة في لين وسلاسة، حتى كأنها كانت سُيولاً وقَعَتْ في تلك الأباطح فجرتُ بها. " ².

✓ القول الثاني :

" ومثل هذه الاستعارة في الحُسْن واللفظِ وعلوِّ الطبقة في هذه اللفظة بعينها قول الآخر: سالتُ عليه شِعبُ الحيِّ حينَ دَعا ... أنصَارُهُ، بوجوه كالدنانير أرادَ أنه مُطاعٌ في الحيِّ، وأنهم يُسرِّعون إلى نُصْرته، وأنه لا يدْعوهم لِحَرْبٍ أو نازلٍ خُطب، إلا أَتَوْه وكَثُرُوا عليه، وازْدَحَمُوا حوَالِيه، حتى تجدهم كالسيول تجيء من ههنا وههنا، وتتصبُّ من هذا المسيلِ وذلك¹، حتى يَغْصَّ بها الوادي ويَطفَحَ منها"³.

✓ القول الثالث :

" ومن بديع الاستعارة ونادرها، إلا أن جهة الغرابة فيه غيرُ جهتها في هذا، قولُ يزيد بنِ مَسْلَمَةَ بنِ عبدِ الملكِ يصفُ فرساً له، وأَنَّهُ مُؤدَّبٌ، وأنه إذا نَزَلَ عنه وألْقَى عِنانَه في قَرْبوسِ سَرْجِه، وقفَ مكانَه إلى أن يعودَ إليه:

الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص 67¹

المصدر السابق ، ص 74²

المصدر نفسه ، ص 75³

عَوَّدَتْهُ فِيمَا أَزُورُ حَبَائِبي ... إِهْمَالَهُ، وَكَذَاكَ كُلَّ مَخَاطِرِ
وَإِذَا اخْتَبَى قَرَبُوسُهُ بَعْنَانِهِ ... عَلَكَ الشَّكِيمَ إِلَى انْصِرَافِ الزَّائِرِ
فَالْغَرَابَةِ هَهُنَا فِي الشَّبَّهِ نَفْسِهِ، وَفِي أَنَّ اسْتَدْرَكَ أَنَّ هَيْئَةَ الْعِنَانِ فِي مَوْقَعِهِ مِنْ قَرَبُوسِ
السَّرِجِ، كَالْهَيْئَةِ فِي مَوْضِعِ الثَّوْبِ مِنْ رُكْبَةِ الْمُحْتَبِي. ¹

✓ القول الرابع :

" وَلَيْسَتْ الْغَرَابَةُ فِي قَوْلِهِ: وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ
عَلَى هَذِهِ الْجُمْلَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يُغَرِّبْ لِأَنَّ جَعَلَ الْمَطِيَّ فِي سُرْعَةٍ سِيرَهَا وَسَهَوْلَتِهِ
كَالْمَاءِ يَجْرِي فِي الْأَبْطُحِ، فَإِنَّ هَذَا شَبَّهَ مَعْرُوفٌ ظَاهِرٌ، وَلَكِنَّ الدِّقَّةَ وَاللِّطْفَ فِي
خُصُوصِيَّةِ أَفَادِهِ، بِأَنَّ جَعَلَ "سَال" فِعْلاً لِلْأَبَاطِحِ، ثُمَّ عَدَّاهُ بِالْبَاءِ، ثُمَّ بَانَ أَدْخَلَ الْأَعْنَاقَ
فِي الْبَيْنِ، فَقَالَ: "بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ"، وَلَمْ يَقُلْ: "بِالْمَطِيِّ"، وَلَوْ قَالَ: "سَالَتْ الْمَطِيُّ فِي
الْأَبَاطِحِ"، لَمْ يَكُنْ شَيْئاً.

وَكَذَلِكَ الْغَرَابَةُ فِي الْبَيْتِ الْآخِرِ، لَيْسَ فِي مُطْلَقٍ مَعْنَى "سَال"، وَلَكِنْ فِي تَعْدِيَّتِهِ
بَعْلَى وَالْبَاءِ، وَبِأَنَّ جَعْلَهُ فِعْلاً لِقَوْلِهِ "شَعَابُ الْحَيِّ" وَلَوْلَا هَذِهِ الْأُمُورُ كُلُّهَا لَمْ يَكُنْ هَذَا
الْحُسْنُ. وَهَذَا مَوْضِعٌ يَدِقُّ الْكَلَامُ فِيهِ. ²

✓ القول الخامس :

" وَمِنْ سِرِّ هَذَا الْبَابِ، أَنَّكَ تَرَى اللَّفْظَةَ الْمُسْتَعَارَةَ قَدْ اسْتُعِيرَتْ فِي عِدَّةٍ مَوَاضِعَ،
ثُمَّ تَرَى لَهَا فِي بَعْضِ ذَلِكَ مَلَاحَةَ لَا تَجِدُهَا فِي الْبَاقِي. مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّكَ تَنْظُرُ إِلَى لَفْظَةِ
"الْجِسْرِ" فِي قَوْلِ أَبِي تَمَامٍ:

لَا يَطْمَعُ الْمَرْءُ أَنْ يَجْتَابَ لُجَّتَهُ ... بِالْقَوْلِ مَا لَمْ يَكُنْ جِسْراً لَهُ الْعَمَلُ
وَقَوْلُهُ:

بَصُرْتُ بِالرَّاحَةِ الْعُظْمَى فَلَمْ تَرَهَا ... تُتَالِ إِلَّا عَلَى جِسْرِ مَنْ التَّعَبِ
فَتَرَى لَهَا فِي الثَّانِي حُسْناً لَا تَرَاهُ فِي الْأَوَّلِ، ثُمَّ تَنْظُرُ إِلَيْهَا فِي قَوْلِ رَبِيعَةَ الرُّقَى:
قُولِي نَعَمْ وَنَعَمْ إِنْ قُلْتَ وَاجِبَةً ... قَالَتْ عَسَى وَعَسَى جِسْرٌ إِلَى نَعَمْ

¹ المصدر نفسه

² المصدر السابق، ص 75 و 76

فَتَرَى لَهَا لُطْفًا وَخَلَابَةً وَحُسْنًا لَيْسَ الْفَضْلُ فِيهِ بِقَلِيلٍ. " ¹

✓ القول السادس :

"ومما هو أَصْلٌ في شَرَفِ الاستعارة، أَنْ تَرَى الشاعِرَ قد نجَمَ بين عدّة استعاراتٍ، قَصْداً إِلَى أَنْ يُلْحَقَ الشَّكْلَ بِالشَّكْلِ، وَأَنْ يُتِمَّ المعنى والشَّبهَ فيما يريد، مثاله قول امرئ القيس:

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ ... وَأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءَ بِكُلِّ
لَمَّا جَعَلَ لِلَّيْلِ صُلْباً قَدْ تَمَطَّى بِهِ، ثَنَّى ذَلِكَ فَجَعَلَ لَهُ أَعْجَازاً قَدْ أَرْدَفَ بِهَا الصُّلْبَ،
وَتَلَّثَّ فَجَعَلَ لَهُ كَلْكَلاً قَدْ نَاءَ بِهِ، فَاسْتَوَفَى لَهُ جَمْلَةً أَرْكَانِ الشَّخْصِ، وَرَاعَى مَا يَرَاهُ
الناظرُ من سَوَادِهِ، إِذَا نَظَرَ قُدَّامَهُ، وَإِذَا نَظَرَ إِلَى خَلْفِهِ، وَإِذَا رَفَعَ الْبَصَرَ وَمَدَّهُ فِي
عُرْضِ الْجَوِّ. " ²

3 - علم البديع :

إن مصطلح "بديع" جاء على وزن "فعليل" يأتي لغة بمعنى اسم الفاعل، وبمعنى اسم المفعول، مشتق من مادة " ب د ع " .

يقال في اللغة: " بَدَعَ الشَّيْءُ يَبْدَعُهُ بَدْعاً وَابْتَدَعَهُ: أَنْشَأَهُ وَبَدَأَهُ. وَبَدَعَ الرَّكِيَّةُ: اسْتَنْبَطَهَا وَأَحْدَثَهَا. وَرَكِيٌّ بَدِيعٌ: حَدِيثُهُ الْحَفَرُ. وَالبَدِيعُ والبَدْعُ: الشَّيْءُ الَّذِي يَكُونُ أَوَّلًا. وَفِي التَّنْزِيلِ: قُلْ مَا كُنْتُ بَدْعاً مِنَ الرُّسُلِ؛ أَيِ مَا كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ أُرْسِلَ، قَدْ أُرْسِلَ قَبْلِي رُسُلٌ كَثِيرٌ. وَالبَدْعَةُ: الْحَدَثُ وَمَا ابْتَدَعَ مِنَ الدِّينِ بَعْدَ الْإِكْمَالِ. ابْنُ السِّكِّيتِ: الْبَدْعَةُ كُلُّ مُحْدَثَةٍ... وَالبَدِيعُ: الْمُحْدَثُ الْعَجِيبُ. وَالبَدِيعُ: الْمُبْدَعُ. وَأَبْدَعْتُ الشَّيْءَ: اخْتَرَعْتَهُ لَا عَلَى مِثَالٍ. وَالبَدِيعُ: مِنَ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لِابْتِدَاعِهِ الْأَشْيَاءَ وَإِحْدَاثِهِ إِيَّاهَا وَهُوَ الْبَدِيعُ الْأَوَّلُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى مُبْدَعٍ أَوْ يَكُونُ مِنْ بَدَعَ الْخَلْقِ أَيِ بَدَأَهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ أَيِ خَالِقُهَا وَمُبْدِعُهَا فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْخَالِقُ الْمُخْتَرِعُ لَا عَنْ مِثَالٍ سَابِقٍ، قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: يَغْنِي أَنَّهُ أَنْشَأَهَا عَلَى غَيْرِ حِذَاءِ

المصدر نفسه، ص 79¹

المصدر السابق، ص 79²

وَلَا مِثَالٍ إِلَّا أَنَّ بَدِيعًا مِنْ بَدَعٍ لَا مِنْ أَبْدَعٍ، وَأَبْدَعُ: أَكْثَرُ فِي الْكَلَامِ مِنْ بَدَعٍ، وَلَوْ اسْتَعْمَلَ بَدَعٌ لَمْ يَكُنْ خَطَأً، فَبَدِيعٌ فَعِيلٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ مِثْلَ قَدِيرٍ بِمَعْنَى قَادِرٍ، وَهُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ بَدَأَ الْخَلْقَ عَلَى مَا أَرَادَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ تَقَدَّمَ¹.

" وقد أطلقت كلمة " البديع " على العلم أو الفن الجامع والشارح للبدايع البلاغية المشتملة على المحسنات المعنوية، والمحسنات اللفظية، من منثورات جمالية في الكلام، مما لم يلحق بعلم المعاني، ولا بعلم البيان. فعلم البديع اصطلاحاً: هو العلم الذي تُعَرَّفُ به المحسنات الجمالية المعنوية واللفظية المنثورة، التي لم تُلْحَقْ بعلم المعاني، ولا بعلم البيان. المحسنات الجمالية المعنوية: هي ما يشتمل عليه الكلام من زينات جمالية معنوية قد يكون بها أحياناً تحسينٌ وتزيينٌ في اللفظ أيضاً ولكن تبعاً لا أصالة. المحسنات الجمالية اللفظية: هي ما يشتمل عليه الكلام من زينات جمالية لفظية، قد يكون بها تحسين وتزيين في المعنى أيضاً، ولكن تبعاً لا أصالة².

ولما كان علم البديع منوطاً به إظهار ما في كلام العرب من جمال وحسن فإن علماء الذين قصدوا تقنيته ابتداءً من ابن المعتز وقدامة بن جعفر قد استبانوا منه ما ينيف على المائة نوع، استظهروها من كلام العرب منظومه ومنثوره، قديمه وحديثه، وكان القرآن الكريم والحديث الشريف أسمى مثال لهم في درسه البديعي.

وبعلم البديع يكتمل مثلث علوم البلاغة في المعاني والبديع، وهي علوم تتحرى مواطن الصحة والحسن في كلام العرب شعره ونثره، من حيث المعاني والألفاظ في علاقاتها ومواقعها من الكلام، لذا كان لزماً على دارس اللغة العربية وآدابها أن يصيب قدراً من معرفة هذه العلوم، يكون له عوناً على أداء ما يرتجى منه في

¹ ابن منظور : لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، ج8، 1415هـ، (بدع)، ص7

² ابن حسن عبد الرحمن : البلاغة العربية، دار القلم، دمشق، ط1، ج2، 1416هـ و1996م، ص368

ميدانه الذي اختاره

¹.

المحاضرة الرابعة:

¹ ينظر: الإبراهيم سمير: علم المعاني علم البيان علم البديع، شبكة منتديات أنوار الإسلام ، 2009 ، الموقع:
<https://sy-okh.yoo7.com/t12-topic>

النظم وعلمي النحو والصرف

لم نجد عبد القاهر الجرجاني في كتبه أنّه فصل بين علمي النحو والصرف، وإنما يتحدث كثيرا عن علم النحو فقط دون علم الصرف وكأنّ هذا الأخير هو جزء منه، وسنركز هنا على العلاقة التي تجمع بين علم النحو والنظم عند الجرجاني .

لقد أقام الجرجاني نظريته على أساس علم النحو فقال: " اعلم أنّ ليس "النظم" إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه "علم النحو"، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي تُهَجَّتْ فلا تزيغ عنها، وتحفظُ الرسوم التي رُسمتْ لك، فلا تُخلَّ بشيءٍ منها"¹، والملاحظ أنّ هناك من سبقه قد أشار إلى هذه العلاقة وهما : السيرافي والقاضي عبد الجبار² .

فالمتصفح في كتاب " دلائل الإعجاز " يجد أنّه جعل هذه العلاقة لبّ الكتاب وجوهره الذي من أجله صنّف، فقد جعله أصلا ضروريا لا يمكن الاستغناء عنه³ ، مستفيدا في ذلك ممن سبقه من النحاة " في عرض نظريته العظيمة، وإقناع الخلق بها دون أن نرى من مجرد قلمه محاولا هدمها، أو النيل منها، لأنه أقام نظريته على أسس نحوية مسلم منها على مر القرون "⁴ .

فالنظرة القديمة للنحو قد تجاوزها عبد القاهر الجرجاني وأضاف فيها لمساته الخاصة جاعلا إياها ترتقي إلى درجة لم يعهدها الأوائل " إذ لم تعد قواعد النحو مقصورة على الإعراب متسمة بالجفاء كما عهدناها في كتب النحو الخالصة، وإنما صارت على يديه وسيلة من وسائل التصوير، ومظهرا من مظاهر البراعة ومقياسا يهتدى به إلى الجودة، وسبيلا يتسابق فيه الشعراء للوصول إلى غاية البيان"⁵ .

الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص 81¹

ينظر: حسين عبد القادر: أثر النحاة في البحث البلاغي، دار غريب، القاهرة ، ص 379²

ينظر: حسين عبد القادر: أثر النحاة في البحث البلاغي، ص 386 و 387³

المرجع نفسه ، ص 395⁴

المرجع نفسه، ص 396⁵

أضف إلى ذلك فقد أحدث علاقة وطيدة بين نظم الكلام ومعاني النحو مستشهدا بشواهد شعرية فيقول: " وإن أردت أظهر أمراً في هذا المعنى، فانظره إلى قول إبراهيم بن العباس:

فلو إذ نبا دهرٌ، وأنكر صاحبٌ، ... وسلط أعداءٌ، وغاب نصيرٌ
تكون عن الأهواز داري بنجوةٍ، ... ولكن مقادير جرت وأمورٌ
وإني لأرجو بعد هذا محمداً ... لأفضل ما يرجى أخ وزير¹ " 2.

ثم يبدأ بشرح ذلك فيقول: " فإنك ترى ما ترى من الرؤنق والطلاوة، ومن الحسن والحلاوة، ثم "إذ نبا" على عامله الذي هو "تكون"، وأن لم يقل: فلو تكون عن الأهواز داري بنجوة إذ نبا دهرٌ ثم أن قال: "تكون"، ولم يقل "كان" ثم أن أنكر الدهر ولم يقل: "إذ نبا الدهر" = ثم أن ساق هذا التكرير في جميع ما أتى به من بعد ثم أن قال وأنكر صاحبٌ ولم يقل وأنكرت صاحباً لا ترى في البيتين الأولين شيئاً غير الذي عدته لك تجعله حسناً في "النظم"، وكله من معاني النحو كما ترى. وهكذا السبيل أبداً في كل حسنٍ ومزيةٍ رأيتهما قد نُسبا إلى "النظم"، وفصلٍ وشرفٍ أحيلَ فيهما عليه³.

كما نجده يفرق بين النحو ومعاني النحو، فالأول يقصد به القواعد التي ينضبط عليها الكلام ويقتضي اتباع سنن القدامى في كلامهم، أما الثاني فهو النظم القائم على " توحي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم"⁴.

يشرح الجرجاني العلاقة الوطيدة بين معاني الكلم ومعاني النحو فيقول: " اعلم أننا إذا أضفنا الشعر أو غير الشعر من ضروب الكلام إلى قائله، لم تكن إضافتنا له من حيث هو كلمٌ وأوضاعٌ لغية، ولكن من حيث توحي فيها "النظم" الذي بينا أنه عبارة عن توحي معاني النحو في معاني الكلم... وإذا كان الأمر كذلك، فينبغي لنا أن ننظر في الجهة التي يختص منها الشعر بقائله. وإذا نظرنا وجدناه يختص به من جهة

الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص 86¹

ابن عباس إبراهيم: ديوان الطرائف الأدبية، ص 132²

الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص 86³

المصدر نفسه، ص 525⁴

تَوَخَّيه في معاني الكَلَمِ التي أَلْفَه منها، ما تَوَخَّاه من معاني النحو، ورأينا أنْفَسَ الكَلَمِ بمعزَلٍ عن الاختصاص، ورأينا حالها معه حال الإبريسم مع الذي يَنْسِجُ منه الديباج، وحال الفضة والذهب مع مَنْ يصوغُ منهما الحليَّ. فكما لا يَشْتَبِهُ الأمرُ في أَنَّ الديباجَ لا يُخْتَصُّ بناسجه من حيثُ الإبريسم، والحليَّ بصائغها من حيثُ الفضة والذهب، ولكن من جهة العمل والصناعة، وكذلك يَنْبَغِي أَنْ لا يَشْتَبِهَ أَنَّ الشعرَ لا يختص بقائله من جهة أنْفَسَ الكَلَمِ وأوضاع اللغة.¹

ومما سبق ذكره يتبين لنا أَنَّ معاني النحو التي ركّز عليها عبد القاهر الجرجاني وبنى عليها نظريته لا يقصد بها الإعراب " لأنَّ هذا الأخير عاجز عن إنتاج التفاضل البلاغي والجمال بين العبارات " ² ، وهنا يقول : " ومن العَجَبُ أَنَّا إذا نظَرْنَا في الإعراب، وَجَدْنَا التفاضل فيه مُحالاً؛ لأنه لا يُتَصَوَّرُ أَنْ يكونَ للرَّفَعِ والنَّصْبِ في كلامٍ، مزيةٌ عليهما في كلامٍ آخَرٍ؛ وإنما الذي يُتَصَوَّرُ أَنْ يكونَ ههنا: كلامان قد وقعَ في إعرابهما خللٌ، ثم كان أحدهما أَكْثَرَ صواباً من الآخر، وكلامان قد استمرَّ أحدهما على الصَّوابِ ولم يَسْتَمِرَّ الآخَرُ، ولا يكونُ هذا تفاضلاً في الإعراب، ولكن تركاً له في شيء، واستعمالاً في آخَرٍ، فاعرف ذلك. " ³.

وفي موطن آخر يعلل ذلك فيقول: " وَمِنْ ههنا لم يَجْزُ، إذا عُدَّ الوجوه التي تَظْهَرُ بها المزية، أَنْ يُعَدَّ فيها الإعراب؛ وذلك أَنَّ العِلْمَ بالإعرابِ مُشْتَرِكٌ بَيْنَ الْعَرَبِ كُلِّهِمْ، وليس هو مما يُسْتَنْبَطُ بالفكرِ، ويُسْتَعانُ عليه بالروية " ⁴.

المحاضرة الخامسة:

المصدر السابق ، ص 362 ¹

بلخير أرفيس: نظرية النظم بين الأصل النظري والبعد الفكري، ص 86²

الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص 399³

المصدر نفسه ، ص 395⁴

النظم عند سيبويه

يعدّ سيبويه إمام النحو في عصره وشيخه توفي سنة 180هـ، لقد تحدّث عن معنى النظم في مواضع عدة من كتابه، ولم يورد مصطلح النظم وإنما أشار إليه ولمّح عنه بكلمة " الاستقامة"، فقد تكلم عن ائتلاف الكلام وجعل مداره على تأليف العبارة وعلاقة الألفاظ بعضها ببعض، إذ يرى أن وضع الألفاظ في مواضعها دليل على حسن ائتلاف الكلام (النظم)، ووضعها في موضعها دليل على فسادها حيث قال: " هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب. فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس وسأتيك غدا، وسأتيك أمس. وأما المستقيم الكذب فقولك: حملتُ الجبل، وشربتُ ماءَ البحر " ونحوه. وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيدا رأيتُ، وكى زيدا يأتيتك، وأشباه هذا. وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشربُ ماءَ البحر أمس.¹ .

إنّ إشارات سيبويه إلى معنى النظم في مواضع مختلفة من كتابه لدليل على أنّه راعاه وعدّه مقياسا ومعيارا يوزن به الكلام وينتقد، ويؤكد ذلك تقسيمه الذي جاء في " باب الاستقامة من الكلام والإحالة" والسياق الوارد فيه، فقد تحدّث قبل ذلك عن المسند والمسند إليه والعلاقة بين الألفاظ والمعاني ومسائل أخرى كالحذف في الألفاظ والاستغناء والعوض، ثم أتبع هذه القسمة بجديته عن الضرورة الشعرية التي تقتضي الخروج عن القواعد الصرفية واللغوية فيقول: " هذا باب ما يحتمل الشعر اعلم أنه يجوز في الشعر ما لا يجوز في الكلام من صرف ما لا ينصرف، يشبهونه بما قد حذف واستعمل محذوفا، كما قال العجاج:
قواطنا مكة من ورق الحمى...

سيبويه: الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، ج1، 1408هـ

و1988م، ص25 و 26¹

وربما مدوا مثل مساجد ومنابر، فيقولون مساجيد ومنابر، شبهوه بما جمع على غير واحده في الكلام، كما قال الفرزدق:

تنفي يداها الحصى في كل هاجرة ... نفى الدنانير تنقاد الصياريف

... وليس شيء يضطرون إليه إلا وهم يحاولون به وجها. وما يجوز في الشعر أكثر من أن أذكره لك ههنا، لأن هذا موضع جمل، وسنبين ذلك فيما نستقبل إن شاء الله.¹، فسياق الكلام بسوابقه ولواحقه يتناول بناء الكلام العربي بلفظه ونظمه ومعناه وكل ذلك من صلب نظرية النظم وقواعدها .

تشرّب النحو وتبحّر فيه حتى أصبح رئيسه وإمامه الذي لا يغالبه ولا ينازعه فيه أحد، وميزة نحو سيبويه وغيره من متقدمي النحاة على خلاف متأخريهم الاهتمام بالمعنى المتوخى من وراء تركيب الألفاظ ونجد ذلك في باب اللفظ للمعاني فيقول: "هذا باب اللفظ للمعاني : اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين. وسترى ذلك إن شاء الله تعالى.

فاختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين هو نحو: جلس وذهب. واختلاف اللفظين والمعنى واحد نحو: ذهب وانطلق. واتفاق اللفظين والمعنى مختلف قولك: وجدت عليه من الموجدة، ووجدت إذا أردت وجدان الضالة. وأشباه هذا كثير"² ، وهذه الخاصية هي بيت القصيد ومربط الفرس في نظرية النظم، وهي البداية التي انطلق منها الإمام الجرجاني لتقرير نظريته وتلقيدها.

المحاضرة السادسة:

سيبويه: الكتاب، ج1، ص25 و28 و32¹

المصدر نفسه، ص24²

النظم عند المبرد وابن قتيبة

1- ابن قتيبة (ت276هـ):

ألف ابن قتيبة كتابه " تأويل مشكل القرآن " يرد فيه مجموعة من الشبهات التي حاول بعض أعداء القرآن الكريم إثارتها، إذ دار خلاف بين المعتزلة والفقهاء والمحدثين في فهم كلام الله تعالى، فالمذهب الاعتزالي تميز بالجرأة في التأويل والمبالغة في تمجيد العقل وهذا ما رفضه أهل السنة وطالبوا بضرورة الوقوف عند حدود الكتاب والسنة .

فالموضوع العام للكتاب هو الدفاع عن كتاب الله بتأويل مشكله، وحلّ عقده، وبيان موافقة ذلك كله لسنن العرب ونظمهم للكلام. يقول ابن قتيبة: " وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا ... بأفهام كليلية، وأبصار عليية، ونظر مدخول، فحرفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبله. ثم قضوا عليه بالتناقض، والاستحالة، واللحن، وفساد النظم، والاختلاف. وأدلو في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغمر، والحدث الغرّ، واعترضت بالشبه في القلوب، وقدحت بالشكوك في الصدور ... فأحببت أن أنضح عن كتاب الله، وأرمي من ورائه بالحجج النيرة، والبراهين البينة، وأكشف للناس ما يلبسون. فألفت هذا الكتاب، جامعاً لتأويل مشكل القرآن، مستنبطاً ذلك من التفسير بزيادة في الشرح والإيضاح " ¹.

يرى ابن قتيبة أنه لا أحد يقدر على فهم القرآن الكريم إلا الذي وقف على كلام العرب بقواعده ونظمه فيقول: " وإنّما يعرف فضل القرآن من كثر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خصّ الله به لغتها دون جميع اللغات، فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة، والبيان، واتساع المجال، ما أوتيته العرب خصيصاً من الله، لما أرهصه في الرسول، وأراد من إقامة الدليل على نبوته

ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، تح إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 23¹

بالكتاب، فجعله علمه، كما جعل علم كل نبي من المرسلين من أشبه الأمور بما في زمانه المبعوث فيه " ¹ .

أضف إلى ذلك فقد أبرز ابن قتيبة بعض وجوه الإعجاز القرآني، ومن ضمنها النظم العجيب، وقد أشار إليها بشكل عام في مقدمة كتابه، فقال: " وقطع منه بمعجز التأليف أطماع الكائدين، وأبانه بعجيب النظم عن حيل المتكلفين، وجعله متلوا لا يملّ على طول التلاوة، ومسموعا لا تمجّه الآذان، وغصّا لا يخلق على كثرة الرد، وعجيبا. لا تنقضي عجائبه، ومفيدا لا تنقطع فوائده، ونسخ به سالف الكتب. وجمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه، وذلك معنى قول رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «أوتيت جوامع الكلم» " ² .

ففي هذا القول تبرز البذرة الأولى للنظم كوجه إعجازي عنده ، فيرى أن إعجاز القرآن في نظمه ، وهو بهذا يرجع النظم إلى المعاني البلاغية المعتمدة على جودة التصوير ودقة التعبير ³ ، وهو أمر لا يعرفه " من كثر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتتانها في الأساليب، وما خصّ الله به لغتها دون جميع اللغات، فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة، والبيان، واتساع المجال، ما أوتيته العرب " ⁴ .

فقد أعجز القرآن الكريم العرب بنظمه العجيب المخصوص المخالف لما تعهده من فنون القول، ويقصد بالنظم هنا الأسلوب والطريقة المتبعة في ترتيب الكلام ، ولإبراز هذا الإعجاز انصرف ابن قتيبة إلى وجوه بلاغية فصل القول فيها كالقديم والتأخير وغيرها ، وأشار إلى تميّز النظم القرآني بما يحدثه من ألفة لدى القارئ

ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن ، ص 17¹

المصدر نفسه ، ص 11²

³ ينظر: أرفيس بلخير: نظرية النظم بين الأصل النظري والبعد الفكري، البدر الساطع للطباعة والنشر،

الجزائر، دت، ص12

⁴ ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، ص17

والمستمع، لما يتميز به من إيقاع داخلي منتظم¹، فيقول: " جعله متلوًا لا يملّ على طول التلاوة، ومسموعًا لا تمجّه الآذان، وغضًا لا يخلق على كثرة الرد " ². وبذلك يكون ابن قتيبة صريحًا " في أنّ إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه ، وأنّ النظم بمعنى سبك الألفاظ وضم بعضها إلى بعض في تأليف دقيق بينها وبين المعاني حتى يجري معًا في سلامة وعذوبة، ويشمل النظم عنده حسن النغم ودقة التوقيع الداخلي، وهو الذي ينجم من تآلف الحروف في النغم ،كما ينجم عن الفاصلة واطردها، فهو حلو النغم حبيب الجرس لا تمله الآذان " ³.

2- المبرد :

جعل المبرد (ت285هـ) البلاغة من حسن النظم، فقد ربطها " بمفهوم واسع يشمل المتكلم والمخاطب والنص، ثم بدأ الاتجاه نحو خصائصها المتعلقة بالنص الفني " ⁴ ، واستطاع أن يعطي للبلاغة مفهوما جديدا لما قصر دلالتها على صفات العبارة الفنية وفن القول فيقول: " حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام وحسن النظم، حتى تكون الكلمة مقاربة أختها، ومعاوضة شكلها، وأن يقرب بها البعيد، ويحذف منها الفضول " ⁵.

كما أنّه ربط بين النظم والفروق اللغوية ويُسَدِّل على ذلك بما ترويه الكتب عن الحوار الذي دار بين الكندي الفيلسوف والمبرد ، فقد " روي رُوِيَ عن ابن الأنباريّ أنه قال: ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العباس وقال له: إني لأجدُ في كلام العرب حشوًا! فقال له أبو العباس: في أي وضع وجدّت ذلك؟ فقال: أجدُ العرب يقولون: "عبدُ الله قائمٌ"، ثم يقولون "إنَّ عبدَ الله قائمٌ"، ثم يقولون: "إنَّ عبدَ الله لقائمٌ"، فالألفاظُ

¹ ينظر: رحمانى الطيب: (الأصول الفكرية لنظرية النظم في التراث العربي) ، مجلة الكلمة، العدد148، 2019

² ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، ص11

³ ابن الربيع الشافعي خالد : نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية المعلمين ، جازان ، دت ، دص (عبارة عن مطبوعة pdf).

⁴ وهيبة بن حدو: الدرس البلاغي عند المبرد (شهادة أعدت لنيل الدكتوراه)، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، كلية الآداب واللغات ، ص54

⁵ المبرد : البلاغة ، تحقق: رمضان عبد التواب، مكتبة الثقافة الدينية، ط2، 1405هـ و1985، ص81

متكررة والمعنى واحد. فقال أبو العباس: بل المعنى مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم: "عبد الله قائم"، إخبار عن قيامه وقولهم: "إن عبد عبد الله قائم"، جواب عن سؤال سائل وقوله: "إن عبد الله لقائم"، جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررَت الألفاظ لتكرر المعاني. قال فما أحرار المتفلسف جواباً. وإذا كان الكندي يذهب هذا عليه حتى يركب فيه ركوب مستقيم أو معترض، فما ظنك بالعامّة، ومن هو في عداد العامّة، ممن لا يخطر شبه هذا بباله؟¹.

كما أنه استدلل بالعديد من الأمثلة على الفروق اللغوية في كتابه "المقتضب" كالقديم مثلاً فيقول: "ألا ترى أنك إذا قلت: ظننت زيدا أخاك، فإنما يقع الشك في الأخوة فإن قلت: ظننت أخاك زيدا - أوقعت الشك في التسمية وإنما يصلح التقديم والتأخير إذا كان الكلام موضحاً عن المعنى، نحو: ضرب زيدا عمرو؛ لأنك تعلم بالإعراب الفاعل والمفعول فإن كان المفعول الثاني ممّا يصح موضعه / إن قدمته فتقديمه حسن؛ نحو قولك: ظننت في الدار زيدا، وعلمت خلفك زيدا"².

ونجده في مواضع أخرى يغوص في الفروق اللغوية متجاوزاً تلك المبنية على الألفاظ إلى القائمة على الحركات، فلو أفاض فيها لارتقى في البلاغة كارتقائه في النحو³، ومن أمثلة ذلك ما رواه الكسائي: "اجتمعت أنا وأبو يوسف القاضي عند هارون الرشيد، فجعل أبو يوسف يذم النحو، فقلت: ما تقول في رجل قال لرجل: أنا قاتل غلامك، وقال له آخر: أنا قاتل غلامك، أيهما نأخذ به، فقال: آخذهما جميعاً، فقال له هارون: أخطأت فاستحيا وقال: كيف ذلك؟ قال: الذي يأخذ بقتل غلام هو الذي قال: أنا قاتل غلامك بالإضافة لأنه فعل ماض، وأما الذي قال: أنا قاتل غلامك بالنصب فلا يؤخذ لأنه مستقبل لم يكن بعد كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ﴾

الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص 315¹

الميرد: المقتضب، تح: محمد عبد الخالق عزيمة، عالم الكتب، بيروت، ج 3، ص 93²

أرفيس بلخير: نظرية النظم بين الأصل النظري والبعد الفكري، ص 18 و 19³

إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (23) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﷻ ، فلولا التنوين مستقبلا ما جاز فيه غدا، فكان أبو يوسف بعد ذلك يمدح العربية والنحو¹.

الحموي ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط2، ج4، 1995، ص¹ 1741

المحاضرة السابعة: النظم عند أبي هلال العسكري

يساهم أبو هلال العسكري (ت395هـ) بآراء جامعة لفنون القول تأثرت إلى حد بعيد بآراء الجاحظ وابن قتيبة والخطابي وغيرهم ، وقد تطرّق في كتابه " الصناعتين " إلى مواضيع لها علاقة مباشرة بالنظم، إذ قسم نظم الكلام إلى بلاغة وفصاحة، فخص البلاغة بالمعاني و الفصاحة بالألفاظ فيقول: " إنّ الكلام ألفاظ تشتمل على معان تدلّ عليها ويعبر عنها، فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ؛ لأنّ المدار بعد على إصابة المعنى، ولأنّ المعاني تحلّ من الكلام محلّ الأبدان، والألفاظ تجرى معها مجرى الكسوة، ومرتبة إحداها على الأخرى معروفة. ومن عرف ترتيب المعاني واستعمال الألفاظ على وجوهها بلغة من اللغات ، ثم انتقل إلى لغة أخرى تهيأ له فيها من صنعة الكلام مثل ما تهيأ له في الأولى ¹ .

أضف إلى ذلك فقد خصّص في كتابه " الصناعتين " بابا رابعا عنوانه ب" الباب الرابع في البيان عن حسن النظم وجودة الرّصف والسّبك وخلاف ذلك " بدأ حديثه عن أجناس الكلام وما تحتاجه من حسن التأليف وجودة التركيب فيقول: " أجناس الكلام المنظوم ثلاثة: الرسائل، والخطب، والشّعر، وجميعها تحتاج إلى حسن التأليف وجودة التركيب. وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا، ومع سوء التأليف ورداءة الرّصف والتركيب شعبة من التّعمية، فإذا كان المعنى سبيا، ووصف الكلام رديّا لم يوجد له قبول، ولم تظهر عليه طلاوة. وإذا كان المعنى وسطا، ورصف الكلام جيّدا كان أحسن موقعا، وأطيب مستمعا؛ فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعا في المراءى وإن لم يكن مرتقعا جليلا، وإن

¹ العسكري أبو هلال : الصناعتين ، تح: علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية،

اختلّ نظمه فضمتّ الحبّة منه إلى ما لا يليق بها اقتحمته العين وإن كان فائقا ثمينا"¹.

بعدها تكلم عن نظم الكلام وحسن رصفه وجودة سبكه وعكس ذلك فقال: " وحسن الرّصف أن توضع الألفاظ في مواضعها، وتمكّن في أماكنها، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير، والحذف والزيادة إلا حذفاً لا يفسد الكلام، ولا يعمّي المعنى؛ وتضمّ كل لفظة منها إلى شكلها، وتضاف إلى لفظها. وسوء الرّصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها، وصرفها عن وجوها، وتغيير صيغتها، ومخالفة الاستعمال في نظمها. وقال العتّابي: الألفاظ أجساد، والمعاني أرواح؛ وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدّمت منها مؤخّراً، أو أخّرت منها مقدّماً أفسدت الصورة وغيّرت المعنى؛ كما لو حوّل رأس إلى موضع يد، أو يد إلى موضع رجل، لتحوّلت الخلقة، وتغيّرت الحلية."².

وفي مواضع أخرى تعرّض إلى مسائل بلاغية يوضح فيها جودة الرصف والسبك كالإطناب والإيجاز في الباب الخامس، والتشبيه في الباب السابع، أمّا السجع والإزدواج والبديع فنجدّه في الباب الثامن والتاسع.

وخلاصة القول فأبو هلال العسكري عند حديثه عن فنون القول وأجناس الكلام و حسن النظم وجودة الرّصف والسبك وخلاف ذلك، وكذا تعرّضه إلى المسائل البلاغية يكون قد اقترب كثيراً من الشيخ عبد القاهر الجرجاني.

العسكري أبو هلال : الصناعتين ، ص 161¹

² المصدر نفسه ، ص 161

المحاضرة الثامنة:

النظم عند عبد القاهر الجرجاني

* تمهيد :

لقد تضاربت الأقوال والآراء حول الإعجاز القرآني فمنهم من قال بالصرفه كالنظام والجاحظ، ويقصد بها أنّ الله تعالى صرفهم ومنعهم من الإتيان بمثل القرآن. ومنهم من قال أنّه معجز في لفظه وخلوه من الاستكراه والتعقيد، وآخرون قالوا بأنّ المزية في المعنى، بينما عبد القاهر قال بأنّ وجه الإعجاز يكمن في النظم والربط بين اللفظ والمعنى والتصوير ليبرز الإعجاز في القرآن الكريم .

* لمحة عن حياة عبد القاهر الجرجاني¹ :

هو أبو عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني فارسي الأصل جرجاني المولد، فهو من أكابر النحاة وعلماء العربية العربية و البيان، عالم بالنحو والبلاغة، متكلم أشعري وفقه شافعي، يتميز بالدين والورع إلى درجة أنه لما كان يصلي دخل عليه لص فأخذ ما أخذ ولم يقطع صلاته كما قيل عنه، تشبّع بالثقافة الإسلامية المعروفة في عصره كعلوم القرآن وما دار حولها من بحوث ودراسات ، اطلع على كتب سابقه واستفاد منهم كسيبويه وأبي علي الفارسي وابن قتيبة والجاحظ والقاضي الجرجاني وغيرهم.

توفي عام 471هـ تاركا إنتاجا غزيرا موزعا على علوم العربية والدين كالنحو والصرف والبلاغة والعروض والأدب والقرآن أشهرها: " المقتصد في شرح الإيضاح " و " أسرار البلاغة " و " دلائل الإعجاز " .

¹ ينظر: الجرجاني عبد القاهر: المقتصد في شرح الإيضاح،تحق: كاظم بحر المرجان، دار الرشيد للنشر،

المجلد1، العراق،1982، ص من 17 إلى 30

أنتجت مسيرته العلمية الشاقة والطويلة متعلما ومطلعا وناظرا في كتب سابقه ،
وباحثا في قضايا عصره نظرية تسمى بنظرية النظم التي دافع عنها دفاعا مستميتا
من خلال كتابه " دلائل الإعجاز " مبينا أن النظم وسيلة لفهم البيان القرآني .

* كتاب " دلائل الإعجاز " من حيث العنوان والمحتوى :

عنوان الكتاب مكوّن من شقين : الشق الأول " دلائل " والشق الثاني " الإعجاز "
، فالأول يعني: الأسس والعلامات والوسائل، والثاني يعني: الإعجاز القرآني ووسائل
هذا الإعجاز وطرائق فهمه ¹.

لو توغلّلت في محتوى الكتاب لوجدت أنّ عبد القاهر يحاول أن يبرهن أنّ القرآن
الكريم معجز بالنظم لا غير، لذلك نراه يُكثر من الأمثلة والشواهد والشرح ليقرب الفكرة
إلى الذهن، بدأه بمدخل تكلم فيه عن مكانة العلم والبيان والشعر والفصاحة والبلاغة
وهذه الأسس عامة لنظريته، ثم شرع يتحدّث عنها ويفصّل القول فيها مبينا علامات
هذا الإعجاز كالتقديم والتأخير والحذف والقصر والاختصاص، بالإضافة إلى
مقتضيات النظم كالاستعارة والكناية والتمثيل والتشبيه وسائر ضروب المجاز، وكان
أحيانا يُعيد الرأي وأحيانا أخرى يعرضه بطريقة جديدة وهذا كلّه ليقنع القارئ بفكرته.

* مفهوم النظم :

النظم في اللغة هو الجمع والتأليف والتنسيق يقول ابن منظور: " النَّظْمُ: التَّأْلِيفُ،
نَظَمَهُ يَنْظُمُهُ نَظْماً وَنِظَاماً وَنَظَّمَهُ فَانْتَظَمَ وَتَنَظَّمَ. وَنَظَمْتُ اللَّوْلُوَ أَيَّ جَمَعْتُهُ فِي السِّلْكِ،
والتَّنْظِيمُ مِثْلُهُ، وَمِنْهُ نَظَمْتُ الشَّعْرَ وَنَظَّمْتُهُ... والنَّظْمُ: مَا نَظَّمْتَهُ مِنْ لَوْلُوٍ وَخَرَزٍ
وغيرهما، وَاحِدَتُهُ نَظْمَةٌ... وفعلك النَّظْمُ والتَّنْظِيمُ. وَنَظَمْتُ مِنْ لَوْلُوٍ، قَالَ: وَهُوَ فِي الْأَصْلِ
مَصْدَرٌ، والانتظام: الاتِّساق. " ².

أمّا في الاصطلاح الجرجاني فالنظم هو توخي معاني النحو ووجوهه وفروقه
وأحكامه فيما بين معاني الكلم فيقول: " ما أظن بك أيها القارئ لكتابنا، إن كنت وفّيته

¹ ينظر: الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، تحقق: محمود محمد شاكر، دار المدني ، جدة، 1413هـ

و1992م، مقدمة الكتاب .

ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، ج12، 1414هـ، (نظم)، ص578 ²

حقّه من النظر، وتدبّرتّه حقّ التدبّر، إلّا أنّك قد علمت علماً أبقى أن يكون للشكّ فيه نصيب، وللوّقف نحوك مذهب، أن ليس "النظم" شيئاً إلّا توخّي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بيّن معاني الكلم" ¹.

وللتوخي لابد من مراعاة ما يلي :

1- التعليق النحوي: يقصد به علاقة مفردات الجملة بعضها ببعض كعلاقة الفعل

بالفاعل ، وعلاقة المبدأ بالخبر، وعلاقة الصفة بالموصوف، وللتعليق ثلاث طرق:

أ- تعليق اسم باسم

ب- تعليق اسم بفعل

ج- تعليق حرف بهما

2- اعتبار حال المنظوم بعضه ببعض: أي ما يجب أن يكون عليه التركيب بين

الكلمات (قواعد النحو) .

*** بلورة معالم نظرية النظم وبيان أسسها :**

المتدبّر في كتاب " دلائل الإعجاز " والمتأمل فيه يجد أنّ عبد القاهر الجرجاني

قد تحدّث عن نظرية النظم شارحاً ومفصّلاً ومطبّقاً لها، ومستشهداً بشواهد شعرية

وقرآنية وأمثلة من بنات أفكاره، عالج فيها قضايا شائكة فصل فيها القول والتي عرفت

تضارباً في الأقوال لاسيما قضية الإعجاز القرآني وقضية اللفظ والمعنى ، ويمكن أن

استخلاص معالمها أسسها كالاتي :

1- نظم الكلم :

هو أهم أسس نظرية النظم، يُقصد به اقتفاء آثار المعاني وترتيبها بحسب ترتيب

المعاني في النفس مع اعتبار حال المنظوم بعضه ببعض أي مراعاة أحكام النحو

وقوانينه فيما بين معاني الكلم.

¹ الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص525

ولتوضيح ذلك فرّق نين نظم الحروف ونظم الكلم، فنظم الحروف تواليها في النطق وضم الشيء إلى الشيء كيفما جاء واتفق، فلو قال واضع اللغة "ربض" مكان "ضرب" لما أدى ذلك إلى فساد، بينما نظم الكلم فهو نظم يقوم على مراعاة قواعد النحو وأحكامه فيما بين الكلم ، يقول الجرجاني: " ومما يجبُ إحصاءه بِعَقْبِ هَذَا الفصلِ، الفَرْقُ بين قولنا: "حروف منظومة"، و "كلم منظومة". وذلك أَنَّ "نَظْمَ الحروفِ" هو تَوَالِيها في النطق، وليس نَظْمُها بمقتضى عن معنى¹، ولا الناظمُ لها بمقتضى في ذلك رَسْمًا مِنَ العقلِ اقْتَضَى أَنَّ يَتَحَرَّى في نَظْمِها لها ما تَحَرَّاه. فلو أَنَّ واضع اللُّغة كان قد قال "ربض" مكان "ضرب"، لما كَانَ في ذلك ما يُوْدِي إلى فَساد، وأما "نَظْمُ الكَلِمِ" فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تتقي في نَظْمِها آثارَ المعاني، وتُرتِّبها على حسب ترتب المعاني في النفس². فهو إذن نَظْمٌ يُعْتَبَرُ فيه حالُ المنظوم بعضه مع بعضٍ، وليس هو "النَّظْمُ" الذي معناه ضمُّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق " ¹.

ولنظم الكلم لابد من مراعاة ² :

- ترتيب المعاني في النفس أولاً ثم تحذو الألفاظ ترتيبها في النطق.
- توخي معاني النحو التي يقصد بها المعاني الذهنية التي تحدّد العلاقات بين الكلم وتربط بعضها ببعض في كل الجمل .
- اعتبار حال المنظوم بعضه ببعض.

2- أهمية الكلمة داخل التركيب :

يرى عبد القاهر الجرجاني أن الكلمة ليس قيمة إلا وهي متراسة مع أخواتها داخل التركيب، بل إن فصاحتها لا تظهر إلا بعد دخولها التأليف فيقول: " وهل تَجِدُ أحداً يقولُ: "هذه اللفظةُ فصِيحةٌ"، إلاَّ وهو يُعْتَبَرُ مكانها منَ النظم، وحسنَ مُلائمةٍ معناها

الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز ، ص 49 ¹

ينظر: المصدر نفسه ، ص 49 ²

لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟ وهل قالوا: "لفظة متمكنة، ومقبولة"، وفي خلافه: "قلقة، ونابية، ومستكرهة"، إلا وحرصهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معنأهما، وبالقلق والنُبُو عن سوء التلاؤم، وأنَّ الأولى لم تلقَ بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقاً للتالية في مؤادها؟¹

وللتأكيد على مدى ارتباط الكلمات بعضها ببعض وأهمية ذلك في تأدية المعنى المقصود ومدى فصاحتها وهي متناسقة مع بعضها استشهد بشواهد قرآنية وشعرية منها قوله: " وهل تشكُّ إذا فكَّرتُ في قوله تعالى {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [هود: 44]، فتجلى لك منها الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة، والفضيلة القاهرة، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحُسْنُ والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة والرابعة، وهكذا، إلى أن تستقر إليها إلى آخرها وأنَّ الفضل تتأتج ما بينها، وحصل من مجموعها؟"²

يواصل كلامه شارحا ومؤكدا بأنَّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ منفردة وإنَّما من حيث ملائمة معنى اللفظة لمعاني جاراتها فيقول: " إن شككت، فتأمل: هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت، لأدت من الفصاحة ما تؤدِّيه وهي في مكانها من الآية؟ قل: "ابلعي"، واعتبرها وحدها من غير أن تنتظر إلى ما قبلها وما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها. وكيف بالشك في ذلك، ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن تُوديت الأرض، ثم أمرت، ثم في أن كان النداء "بيا" دون "أي"، نحو "يا أيتها الأرض"، ثم إضافة "الماء" إلى "الكاف"، دون أن يقال: "ابلعي ماءك"،

¹ المصدر السابق ، ص44 و45

المصدر نفسه ، ص 46²

ثم أن أُتبعَ نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها، نداء السماء وأمرها كذلك، بما يَخْصُها، ثم أن قيل: و {وَغِيضَ الْمَاءِ}، فجاء الفعل على صيغة "فعل" الدالة على أنه لم يَغِضْ إِلَّا بِأَمْرِ أَمْرٍ وَقُدْرَةٍ قَادِرٍ، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: {وَقُضِيَ الْأَمْرُ}، ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور، وهو: {اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ}، ثم إضمار "السفينة" قبل الذكر، كما هو شرطُ الفخامة والدلالة على عِظَمِ الشَّانِ، ثم مقابلة "قيل" في الخاتمة "بقيل" في الفاتحة؟ أَفَتَرَى لشيءٍ من هذه الخصائص التي تملوك بالإعجازِ روعةً، وتحضركَ عندَ تصوُّرها هيبَةً تُحِيطُ بالنفس من أقطارها تعلُّقاً باللفظ من حيث هو صوتٌ مسموعٌ وحروفٌ تتوالى في النطق؟ أم كلُّ ذلك لما بينَ معاني الألفاظِ مِنَ الاتِّساقِ العجيب؟ " ¹.

ليختم كلامه بقوله : " فقد اتَّضَحَ إذن اتِّضاحاً لا يدَعُ للشك مجالاً، أنَّ الألفاظَ لا تتفاضلُ من حيث هي ألفاظٌ مجردة، ولا من حيث هي كلمٌ مفردة، وأن الفضيلة وخلاقها، في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها4، وما أشبه ذلك، مما لا تَعْلُقُ له بصريح اللفظ" ².

3- اختلاف المعاني باختلاف الناظرين :

كل ناظم يختار الألفاظ الخاصة به ويضعها داخل التركيب بحسب المعنى الذي يريد التعبير عنه والمقصود الذي يريد إيصاله انطلاقاً من ثقافته، وهذا بمراعاة أحكام النحو وقوانينه وفروقه فيقول : " اعلم أن ليس "النظم" إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه "علم النحو"، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تُخلِ بشيءٍ منها. وذلك أننا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كلِّ بابٍ وفروقه، فينظر في

الجرجاني عبد القاهر : دلائل الإعجاز، ص 45 و 46 ¹

المصدر نفسه ، ص 46 ²

"الخبر" إلى الوجوه التي تَرَاهَا في قولك: "زَيْدٌ مُنْطَلِقٌ" و "زَيْدٌ يَنْطَلِقُ"، و "يَنْطَلِقُ زَيْدٌ" و "مَنْطَلِقٌ زَيْدٌ"، و "زَيْدٌ الْمُنْطَلِقُ" و "الْمَنْطَلِقُ زَيْدٌ" و "زَيْدٌ هُوَ الْمَنْطَلِقُ"، وزَيْدٌ هُوَ مَنْطَلِقٌ". وفي "الشرط والجزاء" إلى الوجوه التي تَرَاهَا في قولك: "إِنْ تَخْرُجْ أَخْرَجْ" و "إِنْ خَرَجْتَ خَرَجْتُ" و "إِنْ تَخْرُجْ فَأَنَا خَارِجٌ" و "أَنَا خَارِجٌ إِنْ خَرَجْتَ" و "أَنَا إِنْ خَرَجْتَ خَارِجٌ". وفي "الحال" إلى الوجوه التي تَرَاهَا في قولك: "جاءني زيد مسرعاً"، وجاءني يسرع"، و "جاءني وهو مسرع أو وهو يُسرع" و "جاءني قد أُسرع" و "جاءني وقد أُسرع". فيعرفُ لكلٍّ من ذلك موضعه، ويجيء به حيثُ ينبغي له.¹

يشبه الجرجاني نظم الكلام بصناعات يدوية والاختلاف الواقع بين ناظمي الكلام نظير الاختلاف بين أصحاب الحرف فيقول: "فإنه ينبغي أن لا تراه في مكان إلا أعطيته مثل استحسانك ههنا بل ليس من فضلٍ ومزيةٍ إلا بحسبِ الموضع، وبحسبِ المعنى الذي تُريدُ والغرض الذي تؤمُّ. وإتّما سبيلُ هذه المعاني سبيلُ الأصباغ التي تُعملُ منها الصورُ والنقوشُ، فكما أنك ترى الرجلَ قد تَهْدَى في الأصباغ التي عملَ منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج، إلى ضرب من التخير والتدبر في أنفُس الأصباغ وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجها لها وترتيبه إياها، إلى ما لم يتهدَّ إليه صاحبُه، فجاء نَقْشُه من أجل ذلك أعجَب، وصورُته أغرب، كذلك حالُ الشاعر والشاعر في توحيهما معاني النحو ووجوهه التي علمت أنها محصول "النظم".²

يرى الجرجاني أن الحسن الموجود في نظم الكلام والنمط العالي الذي يتميز به دليل على أن ناظمه صاحب حذق وأستاذية يتميز بسعة الذرع وشدة المنة فيقول: "واعلم أن من الكلام ما أنت ترى المزية في نظمته والحسن، كالأجزاء من الصبغ تتلاحق وينضم بعضها إلى بعض حتى تكثر في العين، فأنت لذلك لا تكبر شأن

المصدر السابق ، ص 81 و 82¹

المصدر نفسه ، ص 87 و 88²

صاحبه، ولا تُقْضِي له بِالْحِذْقِ والأُستاذية وسَعَةِ الذَّرْعِ وشِدَّةِ المُنَّةِ، حتى تَسْتوفي القطعة وتأتي على عِدَّةِ أبياتٍ. وذلك ما كَانَ مِنَ الشعرِ في طبقةٍ ما أنشدتُكَ من أبياتِ البُحْثريّ³ ومنهُ ما أَنْتَ تَرَى الحُسْنَ يَهْجُمُ عَلَيْكَ مِنْهُ دَفْعَةً، ويَأْتِيكَ مِنْهُ ما يَمْلَأُ العَيْنَ ضَرْبَةً⁴ حتى تعرفَ مِنَ البيتِ الواحدِ مكانَ الرَّجُلِ مِنَ الفضلِ، وموضِعَهُ مِنَ الحِذْقِ، وتشْهَدَ له بِفضلِ المُنَّةِ وطولِ الباعِ، وحتى تَعْلَمَ، إنْ لم تَعْلَمْ القائلَ، أَنَّهُ مِنْ قَبْلِ شاعرٍ فحلّ⁵، وأنه خَرَجَ مِنْ تحتِ يَدِ صَناعٍ، وذلك ما إِذا أنشدتَهُ وضعتَ فيه اليَدَ على شيءٍ فقلتَ: هذا، هذا! وما كان كذلك فهو الشعرُ الشاعِرُ، والكلامُ الفاخرُ، والنمطُ العاليُ الشريفُ والذي لا تَجِدُهُ إِلَّا في شِعْرِ الفحولِ البُزْلِ²، ثم المطبوعين الذين يلهمون القولَ إلهامًا " ¹.

4- ربط الكلام بمقام استعماله ومراعاة مقتضى الحال :

تكلم الجرجاني عن ذلك ضمناً من خلال تناوله للتقديم والتأخير والإظهار والإضمار والوصل والفصل والذكر والحذف وغيرها، مبيناً مدى ارتباط ذلك بالسياق وأحوال المخاطب ومقصود المتكلم ومقام إلقاء الكلام، وقد أشار الجرجاني إلى ذلك بعنوان " مزايا النظم بحسب المعاني والأغراض " فقال : " وإذ قد عرفتُ أَنَّ مدارَ أمرِ "النظم" على معاني النحو، وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أَنْ تكونَ فيه، فاعلم أَنَّ الفروقَ والوجوهَ كثيرةٌ ليسَ لها غايةٌ تقفُ عندها، ونهايةٌ لا تجد لها لاهالاً ازدياداً بعدها ثم اعلم أَنَّ ليستَ المزيةُ بواجبةٍ لها في أنفُسِها، ومن حيثُ هي على الإطلاق، ولكن تعرضُ بسببِ المعاني والأغراضِ التي يُوضَعُ لها الكلامُ، ثم بحسبِ موقعِ بعضها من بعضٍ، واستعمالِ بعضها مع بعضٍ. " ²

الجرجاني عبد القاهر : دلائل الإعجاز، ، ص 89¹

² المصدر نفسه، ص 87

بعدها يواصل حديثه شارحاً فيقول : " تفسيرُ هذا: أنه ليس إذا راقَكَ التَّنْكِيرُ في "سُودِدٍ" من قوله: "تَنَقَّلَ في خَلْقِي سُودِدٍ" وفي "دهرٌ" من قوله: "فلو إذْ نَبَا دَهْرٌ"، فإنه يَجِبُ أَنْ يَرَوْكَ أبدأً وفي كُلِّ شيءٍ ولا إذا استحسنْتَ لفظَ ما لم يُسمَّ فاعله في قوله "وأنكرَ صاحبٌ"، فإنه ينبغي أَنْ لا تراه في مكانٍ إلا أعطيته مثل استحسانك ههنا بل ليس مِنْ فضلٍ ومزيةٍ إلا بحسَبِ الموضع، وبحسَبِ المعنى الذي تُريدُ والغرض الذي تؤمُّ. وإنما سبيلُ هذه المعاني سبيلُ الأصباغِ التي تُعملُ منها الصورُ والنقوشُ، فكما أنك ترى الرجلَ قد تَهَدَّى في الأصباغِ التي عَمِلَ منها الصورةُ والنقشُ في ثوبه الذي نسج، إلى ضربٍ من التخيير والتدبُّرِ في أنفُسِ الأصباغِ وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مَرْجِه لها وترتيبه إياها، إلى ما لم يَتَهَدَّ إليه صاحبُه، فجاء نَقْشُه من أَجل ذلك أعجَبَ، وصورته أغرَبَ، كذلك حالُ الشاعرِ والشاعرِ في توخِّيهِمَا معاني النُّحو ووجوهه التي علمت أنها محصول "النظم".¹

وسنأخذ أمثلة على ذلك :

– تقديم المفعول وتأخيرهِ في النفي:

يقول الجرجاني : " ويجيء لك هذا الفرقُ على وَجْهه في تقديمِ المفعولِ وتأخيرهِ. فإذا قلتَ: "ما ضربتُ زيداً"، فَقَدَّمْتَ الفعلَ، كان المعنى أنك قد نَفَيْتَ أَنْ يكونَ قد وَقَعَ ضَرْبٌ منك على زيدٍ، ولم تَعْرِضْ في أمرٍ غَيْرِهِ لنفيٍ ولا إثباتٍ، وتركتَهُ مُبْهَمًا مُحْتَمَلًا. وإذا قلتَ: "ما زيداً ضربتُ"، فَقَدَّمْتَ المفعولَ، كان المعنى على أَنَّ ضَرْباً وَقَعَ منك على إنسانٍ، وظُنَّ أَنَّ ذلك الإنسانَ زيدٌ، فنفيتَ أَنْ يكونَ إِيَّاه. فلكَ أَنْ تقولَ في الوجهِ الأول: "ما ضربتُ زيداً ولا أحداً من الناس"، وليس لك [ذلك] في الوجه الثاني. فلو قلتَ: "ما زيداً ضربتُ ولا أحداً من الناس"، كان فاسداً على ما مضى في الفاعل"².

¹ المصدر السابق، ص 87 و 88

الجرجاني عبد القاهر : دلائل الإعجاز ، ص 126²

- القول في حذف المفعول به:

يقول الجرجاني : " وهذا فنٌ آخرٌ من معانيه عجيبٌ، وأنا ذاكره لك. قال البحتري

في قصيدته التي أولها:

أَعْنُ سَفَهٍ يَوْمَ الْأُبَيْرِقِ أَمْ حِلْمٍ

وهو يذكر مُحاماة الممدوح عليه، وصيانتَه له، ودفعه نوائب الزمان عنه:

وَكَمْ ذُدَّتْ عَنِّي مِنْ تَحَامُلِ حَادِثٍ ... وَسُورَةِ أَيَّامِ حَزْنٍ إِلَى الْعَظْمِ

الأصلُ لا محالة: حَزْنُ اللَّحْمِ إِلَى الْعَظْمِ، إِلَّا أَنَّ فِي مجيئه به محذوفاً، وإسقاطه له مِنْ النُّطْقِ، وتركه في الضمير، مَرِيَّةٌ عجيبةٌ وفائدةٌ جليلةٌ. وذلك أَنَّ مِنْ حَذْقِ الشَّاعِرِ أَنَّ يُوقَعَ المعنى في نَفْسِ السامعِ إيقاعاً يَمْنَعُهُ به مِنْ أَنْ يَتَوَهَّمَ في بدءِ الأمرِ شيئاً غيرَ المراد، ثم ينصرفُ إلى المراد، ومعلومٌ أنه لو أَظْهَرَ المفعولَ فقال: "وسورة أيام حزن اللحم إلى العظم"، لجاز أن يقع في وَهْمِ السامعِ إلى أَنْ يجيءَ إلى قوله: "إلى العظم"، أَنَّ، هذا الحَزْرُ كان في بعضِ اللحمِ دُونَ كَلِّهِ، وأنه قَطَعَ ما يلي الجِلْدَ ولم يَنْتَهِ إلى ما يلي العظم. فلما كان كذلك، وترك ذِكْرَ "اللحم" وأسْقَطَهُ من اللفظ، ليُبْرِئَ السامعَ من هذا الوهمِ، وَيَجْعَلَهُ بحيثُ يَقَعُ المعنى منه في أَنْفِ الفَهْمِ، وَيَتَصَوَّرُ في نفسه من أولِ الأمرِ أَنَّ الحَزْرَ مضى في اللحمِ حتى لم يَرِدْهُ إِلَّا العَظْمُ. أ فَيَكُونُ دليلٌ أوضح من هذا وأَبَيِّنَ وأَجْلَى في صحة ما ذكرْتُ لك، مِنْ أَنَّكَ قد ترى تركَ أَفْصَحَ من الذِّكْرِ، والامتناعَ من أَنْ يَبْرَزَ اللفظُ من الضمير، أحسن للتصوير؟ " 1.

- باب الفصل والوصل :

ينوه الجرجاني بأهمية هذا الباب قائلاً : " اعلم أَنَّ العلمَ بما ينبغي أن يُصَنَعَ في

الجمالِ من عطفِ بعضها على بعضٍ، أو تركِ العطفِ فيها والمجيء بها منثورة،

المصدر نفسه ، ص 171 و 172 ¹

تُسْتَأْنَفُ واحدةٌ منها بعد أخرى من أسرارِ البلاغة، ومما لا يتأتَّى لتمامِ الصَّوابِ فيه إلاَّ الأعرابُ الخُلص، والإِ قَوْمٌ طُبِعُوا على البلاغة، وأوتوا فنّاً من المعرفة في ذوقِ الكلامِ هم بها أفرادٌ. وقد بلغَ من قوة الأمر في ذلك أنَّهم جعلوه حدّاً للبلاغة، فقد جاء عَنْ بعضهم أنه سُئِلَ عنها فقال: "مَعْرِفَةُ الْفَصْلِ مِنَ الْوَصْلِ"، ذاك لغموضه ودقّة مسلكه، وأنّه لا يَكْمُلُ لإِحرازِ الفضيلة فيه أحدٌ، إِلَّا كَمَلَ لسائرِ معاني البلاغة".¹

بعدها أعطى لنا معاني حروف العطف ليقوم بها بابها هذا فقال : " واعلم أنه إنما يَعْرضُ الإشكالُ في "الواو" دونَ غيرها من حروفِ العطف، وذلك لأنَّ تلكَ تقيّدُ مع الإِشراكِ معاني، مثلُ أنَّ "الفاء" توجب الترتيب من غير تراخ، و "ثم" توجيه مع تراخ، و "أو" تردّد الفعلَ بينَ شيئين وتجعلُهُ لأحدهما لا بَعَيْنِهِ، فإذا عطفت بواحدة منها الجملة على الجملة، ظهرت الفائدة، فإذا قلت: "أعطاني فشكرته"، ظهرَ بالفاءِ أنَّ الشكرَ كان مُعَقَّباً على العطاءِ ومسبباً عنه وإذا قلت: "خرجتُ ثم خرجَ زيدٌ"، أفادت "ثم" أن خروجَه كان بَعْدَ خروجِك، وأن مُهَلَّةً وقعتَ بينهما وإذا قلت: "يعطيك أو يكسوك"، دلّت "أو" على أنه يفعلُ واحداً منهما لا بَعَيْنِهِ".²

وقد مثلَ لذلك بأمثلة منها ما يخص حرف الواو الذي يفيد معنى الإِشراكِ مع معانٍ أخرى فيقول : " واعلم أنه إذا كان المخبرُ عنه في الجملتين واحداً كقولنا: "هو يقولُ ويفعلُ، ويَضُرُّ وينفَعُ، ويُسيءُ ويُحسِنُ، ويأمرُ وينهى، ويحلُّ ويعقد، ويأخذُ ويعطي، ويبيعُ ويشترى، ويأكلُ ويشربُ" وأشباه ذلك، ازدادَ معنى الجمعِ في "الواو" قوة وظهوراً، وكان الأمرُ حينئذٍ صريحاً. وذلك أنَّك إذا قلت: "هو يَضُرُّ وينفَعُ"، كنتَ قد أفدتَ "بالواو" أنَّك أوجبتَ له الفعلين جميعاً، وجعلته يفعلُهما معاً، ولو قلت: "يَضُرُّ

المصدر السابق ، ص 222¹

المصدر نفسه ، ص 224²

ينفع": من غير "واو" لم يجب ذلك، بل قد يجوز أن يكون قولك "ينفع"، رجوعاً من قولك "يضر" وإبطالاً له.¹

* منهج عبد القاهر الجرجاني في تعامله مع النصوص وتحليلها :

لنأخذ أولاً طريقة تحليله للنصوص الشعرية ولتكن الأبيات الشعرية السابقة الذكر ، يقول الجرجاني منتقدا نظرة سابقه فيقول : " كقوله:
وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مَنَى كُلِّ حَاجَةٍ ... وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحٌ
وَشَدَّتْ عَلَى دُهُمِ الْمَهَارَى رِحَالُنَا ... وَلَمْ يَنْظُرِ الْغَادِي الَّذِي هُوَ رَائِحٌ
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا ... وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ
ثم راجع فكرتك، واشحذ بصيرتك، وأحسن التأمل، ودع عنك التجوُّز في الرأي، ثم
انظر هل تجدُ لاستحسانهم وحمدهم وثنائهم ومدحهم مُنصرفاً، إلّا إلى استعارة وقعت
موقعها، وأصابَت غرضها، أو حُسن ترتيب تكاملَ معه البيانُ حتى وصلَ المعنى إلى
القلب مع وصول اللفظ إلى السمع، واستقرَّ في الفهم مع وقوع العبارة في الأذن، وإلا
إلى سلامة الكلام من الحشو غير المفيد، والفضل الذي هو كالزيادة في التحديد،
وشيءٍ داخلَ المعاني المقصودة مداخلَ الطفيلي الذي يستثقل مكانه، والأجنبي الذي
يكره حُضوره، وسلامته من التقصير الذي يفتقر معه السامعُ إلى تطلُّب زيادةٍ بقيت
في نفس المتكلم، فلم يدلَّ عليها بلفظها الخاص بها، واعتمد دليلَ حالٍ غير مُفصَّح،
أو نيابةً مذكورٍ ليس لتلك النِّبابة بمُسْتَصْلَحٍ "².

بعدها يواصل كلامه شارحاً ومحللاً تحليلاً دقيقاً بتلك الأبيات فيقول: " وذلك أن
أول ما يتلقاك من محاسن هذا الشعر أنه قال: " ولَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مَنَى كُلِّ حَاجَةٍ "
فعبر عن قضاء المناسك بأجمعها والخروج من فروضها وسُنَنِها، من طريقٍ أمكنه أن
يُقصِّر معه اللفظ، وهو طريقة العموم، ثم نبّه بقوله: " ومسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحٌ

المصدر السابق ، ص 226¹

الجرجاني عبد القاهر : أسرار البلاغة، ص21 و 22²

" على طواف الوداع الذي هو آخر الأمر، ودليل المسير الذي هو مقصوده من الشعر، ثم قال: " أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا " فوصل بذكر مسح الأركان، ما وليه من زَمِّ الركاب وركوب الركبان، ثم دلّ بلفظة الأطراف على الصفة التي يختص بها الرفاق في السفر، ن التصرف في فنون القول وشجون الحديث، أو ما هو عادة المتطرفين، من الإشارة والتلويح والرمز والإيماء، وأنباً بذلك عن طيب النفوس، وقوة النشاط، وفصل الاغتباط، كما توجبُه ألفة الأصحاب وأنسة الأحباب، وكما يليق بحال من وفق لقضاء العبادة الشريفة ورجا حسن الإياب، وتنسم روائح الأحبة والأوطان، واستماع التهاني والتّحايا من الخلّان والإخوان، ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة طبّق فيها مفصل التشبيه، وأفاد كثيراً من الفوائد بلطف الوحي والتّنبية، فصرح أولاً بما أوما إليه في الأخذ بأطراف الأحاديث، من أنهم تتّازعوا أحاديثهم على ظهور الرّواحل، وفي حال التوجّه إلى المنازل، وأخبر بعدُ بسرعة السير، ووطأة الظّهر، إذ جعل سلاسة سيرها بهم كالماء تسيل به الأباطح، وكان في ذلك ما يؤكّد ما قبله، لأن الظّهور إذا كانت وطيئةً وكان سيرها السيّر السهل السريع، زاد ذلك في نشاط الركبان، ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طيباً، ثم قال: بأعناق المطي، ولم يقل بالمطي، لأن السرعة والبُطء يظهران غالباً في أعناقها، ويبين أمرهما من هودايتها وصدورها، وسائر أجزائها تستند إليها في الحركة، وتتبعها في النّقل والخفّة، ويُعبّر عن المرح والنشاط، إذا كانا في أنفسها، بأفاعيل لها خاصّة في العنق والرأس، وتدلّ عليهما بشمائل مخصوصة في المقادير¹ .

" إن تحليله الدقيق وإحساسه العميق هما اللذان مكّناه من اعتماد الدراسة اللغوية مبدأً والتحليل منهجاً، فهو في نظره لا يرى الألفاظ وما تحدّثه أجراس حروفها، ولا المعاني وما تثيره أفكارها، وإنما حاول دراستها ككل متكامل، ويكون تفاعل الألفاظ والمعاني في صياغة منسجمة مع سياق محدد تحت مظلة النظم، وذلك ان من ركائز المنهج اللغوي البحث في العلاقات التي تحكم طبيعة تفاعل العناصر المكونة للظاهرة

المصدر السابق، ص22 و 23¹

قصد تأدية وظيفتها، فالبحث في البنية يكون أولاً، لينتقل بعدها إلى استنباط الدلالة التي لا ينبغي لها أن تخرج عن نطاق البنية أو أن تتفصل عنها " ¹.

فعبد القاهر الجرجاني في تحليلاته النصية يكون قد فك البلاغة والنقد من قيود الفلسفة والمنطق وأدخل فيهما الروح والحيوية " فالنقد الأدبي يتناول النص من جميع نواحيه، من ناحية لفظه ، ومن ناحية معناه، ومن ناحية تلاؤم اللفظ من المعنى، ومن ناحية صلة النص بقائله وبيئته، ومن ناحية تكوين النص وترتيب أفكاره، وتقديم بعض هذه الأفكار على بعض، ومن ناحية ما في النص من عاطفة وخيال...والبلاغة تتكفل بدراسة بعض النواحي التي يريد النقد أن يدرسها، لن البلاغة تعنى بدراسة المفردات من ناحية فصاحتها، وبدراسة الجملة من حيث قوتها وجمالها في علمي المعاني والبديع، وبدراسة بعض ألوان الخيال المفسر الشارح للفكرة في علم البيان " ².

" لقد قام منهج الجرجاني على ركيزتين، مثلت كل منهما جانباً وإن شئت قلت منهجاً خاصاً في الدرس اللغوي الحديث، الأول يتعلق بالمنهج الوصفي وهو أمر مرتبط بالذوق البلاغي والآخر منهج تحويلي ينحاز إلى العقل أكثر منه إلى الذوق " ³.

ويمكن أن نجد هذا المنهج الوصفي عند حديثه عن الفصاحة فيقول : " وجملة الأمر أنك لن تعلم في شيءٍ من الصناعات علماً ثمرٌ فيه وتُحلي، حتى تكون ممن يعرفُ الخطأ فيها من الصواب، ويُفصلُ بين الإساءة والإحسان، بل حتى تُفاضلَ بين الإحسان والإحسان، وتعرفَ طبقاتِ المُحسنين. وإذا كان هذا هكذا، علمت أنه لا يكفي في علم "الفصاحة" أن تتصّب لها قياساً ما، وأن تصفها وصفاً مُجملاً، وتقول فيها قولاً مُرسلاً، بل لا تكون من معرفتها في شيءٍ حتى تُفصل القول وتُحصّل، وتضع اليد على الخصائص التي تُعرض في نظم الكلم وتُعدها واحدةً واحدة، وتُسمّيها شيئاً شيئاً، وتكون معرفتك معرفة الصنع الحاذف الذي يعلم علم كل خيط من إلا

بلخير أرفيس: نظرية النظم بين الأصل النظري والبعد الفكري ، ص 231 و 232

بدوي أحمد أحمد : من النقد والأدب، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة، 1961، ص 111

بلخير أرفيس: نظرية النظم بين الأصل النظري والبعد الفكري ، ص 234

بريسم الذي في الدّيباج، وكلّ قطعةٍ من القطع المنجورة في الباب المقطع، وكل جره من الآجر الذي في البناء البديع..¹ .

استثمر الجرجاني النظرة الوصفية التحليلية منطلقاً من النظرة الكلية الشمولية المتبوعة بالتحليل ن وهذا ما عرفتة المدارس الأوربية في علمي النفس والاجتماع ، وما يدل على ذلك قول الجرجاني : " أنا نعلم أنّ الجملة أبداً أسبق إلى النفوس من التفصيل، ... لكنك ترى بالنظر الأول الوصف على الجملة، ثم ترى التفصيل عند إعادة النظر، ... وهكذا الحكم في السمع وغيره من الحواس " ².

وفي موضع آخر يظهر المنهج التحويلي لتشومسكي في نصوصه متجاوزا النظرة الوصفية لبتعمق في خبايا الأمور مستخدماً العقل فيقول: " واعلم أنك لا تشفي الغلة ولا تنتهي إلى ثلج اليقين، حتى تتجاوز حد العلم بالشيء مجملاً، إلى العلم به مفصلاً، وحتى لا يُفنعك إلا النظر في زواياه، والتغلغل في مكانه، وحتى تكون كمن تتبّع الماء حتى عرف منبعه، وانتهى في البحث عن جوهر العود الذي يُصنع فيه إلى أن يعرف منبته، ومجرى عُروق الشجر، الذي هو منه " ³.

إذن فالعملية اللسانية حسب الجرجاني مترابطة في مستوياتها المختلفة فهي كلّ متكامل بدأً من الجانب الصوتي إلى الإفرادي إلى التركيبي إلى الدلالي معتمداً في ذلك على أمرين :

1- الذوق:

يقول الجرجاني : " واعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعاً من السامع، ولا يجد لديه قبولا، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة، وحتى يكون ممن تحدّثه نفسه بأنّ لما يؤمى إليه من الحُسن واللطف أضلاً، وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل الكلام، فيجد الأريحية تارة، ويعرى منها أخرى، وحتى إذا عجبته عجب، وإذا نبّهته

الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص 37¹

2 الجرجاني عبد القاهر: أسرار البلاغة، ص 160

الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز ، ص 260³

لموضع المزية انتبه. فأما من كان الحالان والوجهان عنده أبداً على سواء، وكان لا يفقد من أمر "النظم" إلا الصحة المطلقة، وإلا إعراباً ظاهراً، فما أقل ما يجدي الكلام معه. فليكن من هذه صفته عندك بمنزلة من عدم الإحساس بوزن الشعر، والذوق الذي يقيمه به، والطبع الذي يميز صحته من مكسوره، ومزاجه من سالمه، وما خرج من البحر مما لم يخرج منه في أنك لا تتصدى له، ولا تتكلف تعريفه، لعلمك أنه قد عدم الأداة التي معها يعرف¹.

2- العقل:

ويظهر هذا حينما نقد آراء سابقيه "كونهم يأخذون الأشياء ويسلمون بها دون أن يتعاطوا معها وفق رؤية تسمح على الأقل بتقبلها، ثم نجده يصف هؤلاء القوم بصفات متعددة تدخل كلها في خانة الكسل ونقص الهمة"²، فعلى سبيل التمثيل يقول الجرجاني: "واعلم أن القول الفاسد والرأي المدخول، إذا كان صدره عن قوم لهم نباهة وصيت وعلو منزلة في أنواع من العلوم غير العلم الذي قالوا ذلك القول فيه، ثم وقع في الألسن فتداولته ونشرته، وفشا وظهر، وكثر الناقلون له والمشيّدون بذكره صار ترك النظر فيه سنة، والتقليد ديناً، ورأيت الذين هم أهل ذلك العلم وخاصته والممارسون له، والذين هم خلقاء أن يعرفوا وجه الغلط والخطأ فيه لو أنهم نظروا فيه كالأجانب الذين ليسوا من أهله، في قبول والعمل به والركون إليه، ووجدتهم قد أعطوه مقادتهم، وألا نوا له جانبهم، وأوهمهم النظر إلى منتهاه ومنتهابه، ثم اشتهاره وانتشاره وإطباق الجمع بعد الجمع عليه أن الضن به أصوب، والمحاجة عليه أولى. ولربما بل كلما ظنوا أنه لم يشع ولم يتسع، ولم يروه خلف عن سلف، وأخر عن أول، إلا لأن له أصلاً صحيحاً، وأنه أخذ من مغلين صدق، واشتق من نبعة كريمة، وأنه لو كان مدخولاً لظهر الدخل الذي فيه على تقادم الزمان وكرور الأيام. وكمن من خطأ ظاهر ورأي فاسد حظي بهذا السبب عند الناس، حتى بؤأوه في أخص موضع من قلوبهم،

المصدر السابق، ص 291¹

بلخير أرفيس: نظرية النظم بين الأصل النظري والبعد الفكري، ص 236²

ومنحوه المحبة الصادقة من نفوسهم، وعطفوا عليه عطف الأم على واحدٍها. وكم من داءٍ دويٍّ قد استحكَم بهذه العلة، حتى أعيا علاجه، وحتى بعل به الطبيب.¹

* أثر نظرية النظم في الدرس الإعجازي بعد الجرجاني:

كان لدراسة عبد القاهر وأفكاره النظمية وآرائه أهمية عظمى لمعرفة الطريق المؤدي إلى إعجاز القرآن الكريم في أسلوبه ونظمه ، وقد تأثر الذين جاؤوا من بعده بنظرية النظم فمنهم من ألف كتباً ومؤلفات ومنهم من أجرى دراسات وأبحاث في مجال الإعجاز القرآني، كما أشاد معظم المفكرين اللغويين المعاصرين بفضل عبد القاهر وجهوده أمثال : السيد قطب وإبراهيم أنيس وصبحي الصالح و طه حسين والرافعي والعقاد وغيرهم كثير ، وسنأخذ أمثلة لها علاقة بالإعجاز القرآني :

1 - الزمخشري(538هـ):

للمزمخشري كتاب مشهور في تفسير القرآن الكريم وهو "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل"، يتميز بالتأويل معتمداً في ذلك على اللغة والبلاغة والنحو وهذه الأسلحة استخدمها في أمرين: الأول: إظهار النكت البلاغية لإعجاز القرآن، والثاني: خدمة الاعتزال وإخضاع معنى الآيات لمبادئ مذهبه وأصوله².

وبغض النظر عما في الكتاب من الاعتزال فإنه يعكس قدرته الفذة في استخراج النكت والدقائق في القرآن الكريم مظهرها جمال النظم القرآني وبلاغته متأثراً بآراء عبد القاهر الجرجاني النظمية، فكتابه هو تطبيق فعلي لنظرية النظم، فرغم الاختلاف العقدي بينهما فالأول أشعري والثاني معتزلي إلا أنّ الزمخشري سار على نهج الجرجاني في تحليلاته العقلية والدوقية وتطبيقاته البلاغية، فالمتأمل في تراث الجرجاني والزمخشري يجد أنّ هناك تشابهاً بينهما في الأمور الآتية :

¹ الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز ، ص464 و465

ينظر: القصاب وليد : التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة، دار الثقافة ، الدوحة، دط، 1985م، ص 227²

✓ كلاهما له نزعة عقلية وتفكير منطقي وأسلوب منهجي.

✓ كلاهما يعد أدبياً متذوقاً للجمال ومحسناً له .

✓ البلاغة عند كليهما مفعمة بالحيوية والروح والجمال فكانت بلاغة تطبيقية تحيا

في النماذج البليغة¹.

فالمتمل في كتاب " الكشف " يجد أن الزمخشري في تفسيراته للآيات القرآنية يتحدث عن دلالات الجملة الاسمية والفعلية وأغراض التقديم والتأخير والوصل والفصل والتعريف والتذكير والذكر والحذف والقصر والتكرير وغيرها من الأمور النظامية التي تكلم عنها الجرجاني، ولإثبات ذلك سنأخذ أمثلة على ذلك:

* **دلالة الجملة الاسمية :** يقول الزمخشري في تفسير سورة الفاتحة: " والحمد نقيضه الذم، والشكر نقيضه الكفران، وارتفاع الحمد بالابتداء وخبره الظرف الذي هو لله وأصله النصب «2» الذي هو قراءة بعضهم بإضمار فعله على أنه من المصادر التي تنصبها العرب بأفعال مضمرة في معنى الإخبار، كقولهم: شكراً، وكفراً، وعجباً، وما أشبه ذلك، ومنها: سبحانك، ومعاذ الله، ينزلونها منزلة أفعالها ويسدون بها مسدّها، لذلك لا يستعملونها معها ويجعلون استعمالها كالشريعة المنسوخة، والعدل بها عن النصب إلى الرفع على الابتداء للدلالة على ثبات المعنى واستقراره " ².

* **دلالة الفعل المضارع والفعل الماضي :** يقول الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ (المائدة:70) .

" لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُم بالتوحيد وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا ليقفوههم على ما يأتون وما يذرون في دينهم كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ جملة شرطية وقعت صفة لرسلا، والراجع محذوف أي رسول منهم بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ بما يخالف هواهم ويضاد شهواتهم من مشاق التكليف

ينظر: المبارك مازن: الموجز في تاريخ البلاغة، دار الفكر، دط، دت، ص105 وما بعدها¹

الزمخشري: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ، دار الكتاب العربي، بيروت ، ط3، ج1، 1407هـ، ص 92

والعمل بالشرائع. فإن قلت: أين جواب الشرط «1» فإن قوله: (فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ) ناب عن الجواب، لأن الرسول الواحد لا يكون فريقين ولأنه لا يحسن أن تقول إن أكرمت أخي أخاك أكرمت؟ قلت: هو محذوف يدل عليه قوله: (فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ) كأنه قيل: كلما جاءهم رسول منهم ناصبوه، وقوله: (فَرِيقًا كَذَّبُوا) جواب مستأنف لقائل يقول: كيف فعلوا برسلمهم؟ فإن قلت: لم جيء بأحد الفعلين ماضيا «2» وبالأخر مضارعاً؟ قلت: جيء يقتلون على حكاية الحال الماضية استفظاعاً للقتل واستحضاراً لتلك الحال الشنيعة للتعجب منها. قرئ: أن لا يكون، بالنصب على الظاهر. وبالرفع على «أن» هي المخففة من الثقيلة، أصله: أنه لا يكون فتنة فخفت «أن» وحذف ضمير الشأن " 1.

* **فائدة الذكر من الحذف** : يقول الزمخشري في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مِنْ بَعْضِكُمْ بَعْضًا فُلْيُودٌ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتُهُ وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة : 283)

" وَقَلْبُهُ رَفَعَ بِأَثَمٍ عَلَى الْفَاعِلِيَّةِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: فَإِنَّهُ يَأْثِمُ قَلْبَهُ. ويجوز أن يرتفع قلبه بالابتداء. وآثم خبر مقدم، والجملة خبر إن. فإن قلت: هلا اقتصر على قوله: (فَإِنَّهُ آثِمٌ) ؟ وما فائدة ذكر القلب- والجملة هي الآثمة لا القلب وحده-؟ قلت: كتمان الشهادة: هو أن يضمها ولا يتكلم بها، فلما كان إثما مقترفا بالقلب أسند إليه، لأنَّ إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ. ألا تراك تقول إذا أردت التوكيد: هذا مما أبصرته عيني، ومما سمعته أذني، ومما عرفه قلبي، ولأنَّ القلب هو رئيس الأعضاء والمضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله، فكأنه قيل: فقد تمكن الإثم في أصل نفسه، وملك أشرف مكان فيه. ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان فقط، وليعلم أنَّ القلب أصل متعلقه ومعدن

الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج1، ص 662¹

اقترافه، واللسان ترجمان عنه. ولأن أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح وهي لها كالأصول التي تتشعب منها " ¹.

2- سيد قطب :

كانت لنظرية النظم الجرجانية الأثر الكبير في تفكير سيد قطب، إذ أوحى له أفكارا وأعمالا فنية للغوص في الإعجاز القرآني وجمال سحر بيانه ، فقد عمل على الكشف عن جمال التصوير الفني في القرآن وسمى كتابه " التصوير الفني في القرآن " ، وفيه يقول عن الجرجاني معترفا بفضلته عليه : " ولكن لعبد القاهر فضلته العظيم في تقريره هذه القضية " ².

وفي موضع آخر يقول : " رحم الله عبد القاهر ، لقد كان النبع منه على ضربة معول فلم يضربها. إنَّ الجمال الفني في الآية الكريمة ﴿ وَاشْتَعلَ الرَّأسُ شَيْبًا ﴾ ﴿ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ هو في ذلك الذي قاله من ناحية النظم وفي شيء آخر وراءه، هو هذه الحركة السريعة في اشتعال الرأس في لحظة، وحركة تفجير العيون في الأرض، حركة تشترك فيها المخيلة والنظر، فتلمس الحس وتنير الخيال، هنا حركة ممنوحة للشيب وليست له في الحقيقة، وهذه الحركة هي عنصر الجمال الصحيح " ³.

يرى سيد قطب أن الجرجاني قد حسم في قضايا اللفظ والمعنى وأجاد في ذلك فيقول : " وإنا لنحسب أن عبد القاهر قد توصل إلى رأي حاسم حين انتهى في دلائل الإعجاز إلى أن اللفظ وحده لا يتصوره عاقل أن يدور في بحث من حيث هو لفظ، إنما من حيث دلالاته يدور البحث فيه . وأن المعنى وحده لا يتصور عاقل أن يدور

المصدر السابق، ج1، ص 330¹

قطب سيد : التصوير الفني في القرآن ، القاهرة ، 1966 ، ص 31²

قطب سيد : التصوير الفني في القرآن ، ص 194³

في بحث من حيث هو خاطر في الضمير... وأن المعاني مفيدة في تحديد النظم الذي يؤدي به، فلا يمكن أن يختلف النظمان ثم يتحد المعنى تمام الاتحاد " ¹

إذن فحسب سيد قطب فالطريقة التصويرية للقرآن لها قيمة عظيمة، فهي التي جعلت للمعاني والأغراض والموضوعات صورتها التي نراها ومن هذه الصور تكمن قيمتها الكبرى. " فالسمة الأولى للتعبير القرآني هي اتباع طريقة تصوير المعاني الذهنية والحالات النفسية وإبرازها في صورة حسية مع السير على طريق التصوير للمشاهد " ²

المحاضرة التاسعة:

رأي الجرجاني في الفصاحة والبلاغة

* المفهوم :

1- لم يفرّق الجرجاني بين المصطلحين، فتراه يستعمل الفصاحة مرادفة للبلاغة في مواطن كثيرة، إذ يرى أنّها وصف للكلام بحسن الدلالة وتمامها ثم تبرجها في صورة أبهى وأزين وأنقى وأعجب، وفي موضع آخر يعرف الفصاحة فيقول: " إنّ الفصاحة وصفٌ يجب للكلام من أجل مزية تكون في معناه، وأنها لا تكون وصفاً له من حيث اللفظ مجرداً عن المعنى " ³.

2- الفصاحة والبلاغة لا يرجعان إلى اللفظ وإنما إلى النظم وكيفيات الصياغة وصورها وخصائصها .

المرجع السابق ، ص 194¹

² محمد مراد وليد : نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، ص 178

الجرجاني عبد القاهر : دلائل الإعجاز، ص 442³

* الفصاحة والكلمة المفردة :

1- لا تتفاضل الألفاظ من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة، بل تتفاضل من حيث حسن ملائمة معنى اللفظة لمعاني جاراتها ، لذا قد تكون اللفظة في غاية الفصاحة في موضع ، ثم تكون في غاية الثقل والوحشة في موضع آخر .

2- اللفظ يكون فصيحاً من أجل مزية تقع في معناه لا من أجل جرسه وصداه، يقول الجرجاني : " وإن اعترف بأن ذلك يكون، قلنا له: أخبرنا عنك، أتقول في قوله: وتأبى الطباعُ على الناقلِ

إنه غاية في الفصاحة؟ فإذا قال: نعم. قيل له: أفكان كذلك عندك من أجل حروفه، أم من أجل حسنٍ ومزيةٍ حصلا في المعنى؟ فإن قال: من أجل حروفه: دخل في الهذيان وإن قال: من أجل حسنٍ ومزيةٍ حصلا في المعنى، قيل له: فذاك ما أردناك عليه حين قلنا: إن اللفظ يكون فصيحاً من أجل مزية تقع في معناه، لا من أجل جرسه وصداه" ¹.

* الفصاحة والكلام :

1- تحدث الفصاحة في الكلم بعد التأليف أي بعد ضم بعضها إلى بعض في الجملة، والفصاحة لا توجد في اللفظة مقطوعة عن الكلام الذي تدخل فيه، بل موصولة بغيرها من حيث المعنى، فالمعول عليه في الفصاحة والبلاغة هو نظم الكلم.

2- الكلام نوعان:

- نوع تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ مثل: " خرج زيد وانطلق عمرو" وهو (الإخبار على الحقيقة).

- نوع لا تصل منه إلى الغرض بدلالة معنى اللفظ وحده وإنما بدلالة ثانية (معنى المعنى)، وهو الكناية والمجاز والاستعارة وهذا كله من مقتضيات النظم وخير استشهاد على ذلك قوله تعالى: ﴿وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ (مريم:04) مع مثال: " اشتعل شيب الرأس".

الشرح:

نحن نعلم أن (اشتعل) للشيب في المعنى وإن كان هو للرأس في اللفظ، فالحسن والمزية في أن أسند الفعل إلى الرأس فدلّ بذلك على الشمول، فإذا قارنا بين المثالين فإننا نجد الحسن والروعة في الآية لا في المثال .

يقول الجرجاني : " وبيان آخر، وهو أن القارئ إذا قرأ قوله تعالى: {وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا} [مريم: 4]، فإنه لا يجدُ الفصاحة التي يجدُها إلا من بعد أن ينتهي الكلام إلى آخره. فلو كانت "الفصاحة" "صفة للفظ" "اشتعل"، لكان ينبغي أن يحسبها القارئ فيه حال نطقه به. فمحال أن تكون للشيء صفة، ثم لا يصح العلم بتلك الصفة إلا من بعد عدمه. ومن ذا رأى صفة يعزى موصوفها عنها في حال وجوده، حتى إذا عُدِم صارت موجودة فيه؟ وهل سمع السامعون، في قديم الدهر وحديثه، بصفة شرط حصولها لموصوفها أن يُعَدَم الموصوف؟ فإن قالوا: إنَّ الفصاحة التي ادَّعيناها لللفظ "اشتعل" تكونُ فيه في حال نُطْقنا به، إلا أننا لا نعلم في تلك الحال أنها فيه، فإذا بلغنا آخر الكلام علمنا حينئذ أنها كانت فيه حين نُطْقنا به." ¹

* الفصاحة وربط الجمل:

- 1- بعد توضيح مفهوم الفصاحة والبلاغة وعلاقتها باللفظ والكلام ينتقل من فكرة ضم الكلمات وتعليق بعضها ببعض في الجملة الواحدة إلى فكرة ربط الجمل بعضها ببعض، فوضّح أحوال الوصل والفصل بين الجمل ومعاني حروف العطف.
- 2- ولمعرفة ذلك لابد من معرفة ارتباط الجملة بالموقف أو المقام الذي تقال فيه .
- 3- تكلم عن حروف العطف ومعانيها وهي :

✓ **الواو:** تفيد الاشتراك في الحكم مع وجود تناسب مثل: "دخل أخي وصديقه" (فعل الدخول).

✓ **الفاء:** تفيد الترتيب والتعقيب مثل: "أعطاني فشكرته" .

✓ **ثم:** تفيد الترتيب والتراخي مثل: "خرجتُ ثم خرج زيد" .

✓ **أو :** تفيد تردد الفعل بين شيئين وتجعله لأحدهما لا بعينه مثل: "يُعْطِيكَ أو يكسوك" .

الجرجاني عبد القاهر : دلائل الإعجاز، ص 408¹

تلخيص لما سبق:

- البلاغة هي وصف للكلام بما يلي :
 - ✓ حسن الدلالة وتمامها فيما كانت له .
 - ✓ تبرجها في صورة بهية .
- يتم ذلك بتوفر عاملين :
 - ✓ أن يُؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته.
 - ✓ أن يختار للمعنى اللفظ الذي هو أخصّ به و أكشف عنه وأتمّ له .

المحاضرة العاشرة :

النظم ومعاني النحو عند الجرجاني

1- مفهوم التعلّق:

يقصد بالتعليق علاقة مفردات الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب بعض، كعلاقة الفعل بالفاعل، وعلاقة المبدأ بالخبر، وعلاقة الصفة بالموصوف، وللتعليق ثلاث طرق:

- أ- تعليق اسم باسم
- ب- تعليق اسم بفعل
- ج- تعليق حرف بهما

يقول الجرجاني : "معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها، وجعل بعضها بسبب بعض ، والكلم ثلاث: اسم وفعل وحرف، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام: تعلق اسم باسم ، وتعلق اسم بفعل ، وتعلق حرف بهما .

فالاسم يتعلق بالاسم بأن يكون خبرا عنه ، أو حالا منه ، أو تابعا له...كقولنا: " زيدٌ ضاربٌ أبوه عمرا"...

وأما تعلّق الاسم بالفعل، بأن يكون فاعلاً له، أو مفعولاً ، فيكون مصدراً قد انتصب به كقولك: "ضربتُ ضرباً " ...

وأما تعلّق الحرف بهما ، فعلى ثلاثة أضرب: أحدها: أن يتوسط بين الفعل والاسم ، فيكون ذلك في حروف الجر... "مررتُ بزيد" أو على زيد" ...، والضرب الثاني من تعلّق الحرف بما يتعلّق به، العطف، وهو أن يدخل الثاني في عمل العامل الأول، كقولنا: "جاءني زيد وعمرو"...، والضرب الثالث، تعلّق بمجموع الجملة، كتعلّق حرف النفي والاستفهام والشرط والجزاء بما يدخل عليه "... ما خرج زيد " "... هل خرج زيد؟" ¹.

2 - مفهوم معاني النحو :

عرفتها الدكتورة سناء حميد البياتي في كتابها " قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم" بأنها المعاني الذهنية التي تحدّد العلاقات بين الكلم وترتبط بعضها ببعض في كل الجمل، وهذه المعاني هي: الإسناد والتخصيص والاتباع والإضافة، فتقول: " يقصد الجرجاني بمعاني النحو : المعاني الذهنية التي تتولد في فكر المتكلم عند نظم الجمل، تلك المعاني التي تنشأ من تحديد العلاقات بين الأشياء المعترّ عنها بالكلم، فتربطها ببعضها كما يربط السلك الشفاف حبات العقد، لذلك يصبح الكلام نوعاً من الهذيان في حالة فقدانها" ².

2- 1 الإسناد : هو أساس في بناء كل الجمل، إذ هو عملية ذهنية يقوم بها ذهن المتكلم عند إدراك العلاقة بين الكلمتين ³ أي إسناد الشيء إلى الشيء ويسمى أحدهما مسنداً والآخر مسنداً إليه مثل: " محمد رسول الله" ، ف" محمد" مسند إليه و" رسول الله" مسند .

¹ المصدر السابق ، ص4 و5 و6

² ينظر: حميد البياتي سناء: قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم، دار وائل للطباعة والنشر والتوزيع،

عمان، 2003، ص15

ينظر: حميد البياتي سناء: قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم، ص31 ³

فالمسند والمسند إليه هما عمدتا كل الجمل يقول عنها سيبويه: " هذا باب المسند والمسند إليه ، وهما ما لا يغنى واحد منهما عن الآخر ، ولا يجد المتكلم منه بدا. فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبنى عليه. وهو قولك عبد الله أخوك، وهذا أخوك. ومثل ذلك يذهب عبد الله، فلا بد للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأول بد من الآخر في الابتداء. ومما يكون بمنزلة الابتداء قولك: كان عبد الله منطلقا، وليت زيدا منطلق؛ لأنّ هذا يحتاج إلى ما بعده كاحتياج المبتدأ إلى ما بعده." ¹.

2- 2 التخصيص: وهو معنى نحوي " يتعلق بالإسناد ويرتبط به ويؤدي وظيفته في تقييد الإسناد وتضييق إطلاقه وتحديد من حيث إن كل فرع من فروعه يتعلق بالإسناد أو بما وقع في حيز الإسناد ويخصه في اتجاه معين " ² ، وهو ذو اتجاهات واسعة :

- ✓ تخصيص باتجاه التوكيد وبيان النوع والعدد (المفعول المطلق)
- ✓ تخصيص باتجاه الغاية (المفعول لأجله)
- ✓ تخصيص باتجاه الزمان والمكان (المفعول فيه)
- ✓ تخصيص باتجاه تحديد الهيئة (الحال)
- ✓ تخصيص باتجاه المصاحبة (المفعول معه)
- ✓ تخصيص باتجاه توضيح المبهم (التمييز)
- ✓ تخصيص باتجاه تعيين المبهم (المخصوص)
- ✓ تخصيص باتجاه الإخراج (الاستثناء)
- ✓ تخصيص باتجاه المفعول (المفعول به)

2- 3 الإضافة : يقصد بها نسبة تربط بين شيئين فتجعلهما شيئا واحدا ، وهي على نوعين ³ : إضافة مباشرة مثل " مدير المشروع " ، وإضافة غير مباشرة تكون بواسطة

سيبويه: الكتاب، ج1، ص 23¹

² حميد البياتي سناء: قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم، ص179

³ المرجع السابق، ص235

حروف الجر مثل: " مررتُ بزيد " (أضفت فعل المرور إلى زيد بمساعدة حرف الجر الباء).

2- 4 الاتباع : وهو معنى نحوي يشترك مع المعاني النحوية السابقة الذكر " في نظم الجمل وتأليفها، وفي الاتباع يتعلّق التابع بالمتبوع ويقيده نوعاً من التقيد"¹، وهو ذو اتجاهات متمثلة في :

اتباع باتجاه الوصف (النعت والصفة) مثل : " امتحنت الطلاب الراسبين " .

اتباع باتجاه البيان (البدل والعطف والتوكيد) مثل : " سافر الصديقُ محمدٌ " .

3 - منهج عبد القاهر الجرجاني في تحليل النصوص :

لقد تحدثنا سابقاً عن نظرية النظم ومعالما وأسسها وطريقة تحليل عبد القاهر الجرجاني للشواهد القرآنية والشعرية والحكم والأمثلة التي هي من بنات أفكاره ، سنركز هنا على النصوص الشعرية التي تخدم النظم .

يعتمد منهج الجرجاني في تحليله للنصوص الشعرية على مفهومه للنظم القائم على توخي معاني النحو وأحكامه وفروقه ووجوهه فيما بين معان الكلم ، فهو ينطلق من أساس لغوي يشتق أحكامه من طبيعة العلاقات التي تتولد من دلالات الصياغة اللغوية وفاعليتها الخاصة .

يرى الجرجاني أنّ سر الجودة والرداءة في أي عمل أدبي يكمن في لغة الشاعر أو الكاتب وما تحمله طريقة الصياغة من خصائص فنية محددة ، وكان للسياق دوره الكبير في الكشف عما في الكلمة من نسيج متشعب من الصور والمشاعر يبثه الشاعر عن طريق العلاقات الجديدة المتولدة عن السياق، لإثبات ذلك استشهد بشواهد شعرية ليؤكد على أن الشعر قادر استخراج معان مختلفة من اللفظة الواحدة تبعا

المرجع نفسه، ص 255¹

لاختلاف الشعراء وتباين أساليبهم في طريقة صياغة الكلمة واستغلال إمكاناتها¹ ،
وفيما يلي تمثيل على ذلك :

*** التمثيل الأول عن مواضع " الأخدع " وطرق صياغتها :**

يقول الجرجاني : " وممّا يَشْهَدُ لَدُنْكَ أَنَّكَ تَرَى الْكَلِمَةَ تَرَوُّكَ وتُوْنِسُكَ فِي مَوْضِعٍ ،
ثُمَّ تَرَاهَا بَعِيْنَهَا تَتَّقُلُ عَلَيْكَ وتُوْحِشُكَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ، كَلَفِظَ "الأخدع" فِي بَيْتِ الْحِمَاسَةِ :
تَلَقَّتْ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتُنِي ... وَجِئْتُ مِنَ الْإِصْغَاءِ لَيْتَا وَأَخْدَعَا
وبَيْتِ الْبَحْتَرِيِّ :

وَإِنِّي وَإِنْ بَلَغْنِي شَرَفَ الْغِنَى ... وَأَعْتَقْتُ مِنْ رِقِّ الْمَطَامِعِ أَخْدَعِي
فَإِنَّ لَهَا فِي هَذَيْنِ الْمَكَانَيْنِ مَا لَا يَخْفَى مِنَ الْحُسْنِ ، ثُمَّ إِنَّكَ تَتَأَمَّلُهَا فِي بَيْتِ أَبِي
تَمَام :

يَا دَهْرُ قَوْمٍ مِنْ أَخْدَعَيْكَ فَقَدْ ... أَضْجَجْتَ هَذَا الْأَنَامَ مِنْ خَرْقِكُ3
فَتَجِدُ لَهَا مِنَ الثَّقَلِ عَلَى النَّفْسِ ، وَمِنَ التَّبْغِيصِ وَالتَّكْدِيرِ ، أَضْعَافَ مَا وَجَدْتَ هُنَاكَ
مِنَ الرُّوحِ وَالْخَفَةِ ، وَمِنَ الْإِيْنِاسِ وَالبَهْجَةِ. "2 .

*** التمثيل الثاني عن مواضع " شيء " وطرق صياغتها :**

يقول الجرجاني : " وَمِنْ أَعْجَبِ ذَلِكَ لَفْظَةُ "الشَّيْءِ" ، فَإِنَّكَ تَرَاهَا مَقْبُولَةً حَسَنَةً فِي
مَوْضِعٍ ، وَضَعِيفَةً مُسْتَكْرَهَةً فِي مَوْضِعٍ . وَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ ذَلِكَ ، فَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ
عَمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ الْمَخْزُومِيِّ :

وَمِنْ مَالِي عَيْنِيهِ مِنْ شَيْءٍ غَيْرِهِ ... إِذَا رَاحَ نَحْوَ الْجَمْرَةِ الْبَيْضِ كَالذَّمِيِّ
وَقَوْلِهِ أَبِي حِيَةَ :

إِذَا مَا تَقَاضِي الْمَرْءَ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ ... تَقَاضَاهُ شَيْءٌ لَا يَمَلُّ التَّقَاضِيَا
فَإِنَّكَ تَعْرِفُ حُسْنَهَا وَمَكَانَهَا مِنَ الْقَبُولِ ، ثُمَّ انْظُرْ إِلَيْهَا فِيْبَيْتِ الْمُتَبْنِي :

¹ ينظر: ابن الربيع الشافعي خالدا: نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني مقدماتها وأركانها، قسم اللغة العربية
، كلية المعلمين جازان ، دط ، دت ، دص ، عبارة عن مطبوعة منشورة .

الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص 47²

لَوِ الْفَلَكَ الدَّوَّارُ أَبْغَضْتَ سَعْيَهُ ... لَعَوَّقَهُ شَيْءٌ مِنَ الدَّوَّارِ

فإنك تراها تقل وتضؤل، بحسب نُبلها وحُسنها فيما تَقَدَّم " ¹.

يرى الجرجاني أنَّ السبب في كون الكلمة قد اكتسبت المزية والشرف هو حالها مع أخواتها المجاورة لها في النظم فيقول: " وهذا بابٌ واسعٌ، فإنك تجدُ متى شئتَ الرجلين قد استعملا كَلِمًا بأعيانها، ثم ترى هذا قد فرغَ السِّمَّاك، وترى ذاك قد لصقَ بالحَضِيض، فلو كانتِ الكلمةُ إذا حَسُنَتْ حَسُنَتْ من حيث هي لفظٌ، وإذا اسْتَحَقَّت المزية والشرف استَحَقَّت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها، دون أن يكون السبب في ذلك حالٌ لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم، لما اختلفَ بها الحال، ولكانت غما أن تحسن أبدًا، ولا تحسن أبدًا.

ولا ترى قولاً يضطربُ على قائله حتى لا يدري كيف يُعبّر، وكيف يُورد ويُصدر، كهذا القول. بل إن أردتَ الحقَّ، فإنَّه من جنسِ الشَّيْءِ يُجْري به الرجلُ لسانه ويُطْلِقُه، فإذا فتَّش نفسه، وجدَها تَعْلَمُ بطلانه، وتتطوي على خلافه، ذلك لأنَّه ممَّا لا يقومُ بالحقيقة في اعتقادٍ، ولا يكون له صورة في فؤاد " ².

* التمثيل الثالث عن اتحاد أجزاء النظم ودقة الصنع :

يقول الجرجاني: " وإذ قد عرفتَ هذا النمطَ من الكلام، وهو ما تتَّحدُ أجزاؤه حتى يُوضَعَ وَضْعاً واحداً، فاعلمُ أنه النمطُ العالي والبابُ الأعظم، والذي لا ترى سلطانَ المزية يَعْظُمُ في شيءٍ كَعِظْمِهِ فيه. وممَّا نَدَرَ منه ولطفٌ مأخذه، ودقٌّ نظره واضعه، وجلَّى لك عن شأوٍ قد تحسر دونه العِتَاقُ، وغايةٍ يعيى من قبلها المذاكي الفرح الأبيات المشهورة في تشبيه شيين بشيين، كبيت امرئ القيس:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا ... لَدَى وَكْرِهَا الْعَنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي

وبيت الفرزدق:

وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي الشَّبَابِ كَأَنَّهُ ... لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِبِيهِ نَهَارٌ

وبيت بشار:

المصدر نفسه، ص 47 و 48¹

الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص 48²

كأن مثار النقع فوق رءوسنا ... وأسيفنا، لَيْلٌ تَهَاوَى كواكِبُهُ
ومِمَّا أَتَى فِي هَذَا الْبَابِ مَا تَى أَعْجَبَ مِمَّا مَضَى كَلَهُ، قَوْلُهُ زِيَادُ الْأَعْجَمِ:
وَإِنَّا وَمَا تُلْقِي لَنَا إِنْ هَجَوْتَنَا ... لَكَالْبَحْرِ مَهْمَا يُلْقَى فِي الْبَحْرِ يَغْرَقُ
وَإِنَّمَا كَانَ أَعْجَبَ، لِأَنَّ عَمَلَهُ أَدَقُّ، وَطَرِيقَهُ أَغْمَضُ، وَوَجْهَ الْمُشَابَكَةِ فِيهِ أَغْرَبُ" ¹.

المحاضرة الحادية عشر: نظرية النظم عند الجاحظ

* توفي الجاحظ سنة 255هـ وهو من أئمة البيان والبلاغة وأديب طاووعه قلمه
فتحرك في كل اتجاه وجال في كل حلبة، له كتب مشهورة أهمها: " الحيوان " و " البيان
والتبيين " و وكذا كتاب نسب إليه وهو مفقود يسمى " نظم القرآن " .

* تناول الجاحظ على غرار شيوخ المذهب الاعتزالي مسألة اللفظ والمعنى، كما
خصص حيزا كبيرا من كتاباته للإعجاز القرآني محاولا الكشف عن وجوهه وذهب
إلى أن القرآن معجز من وجهين: الأول : النظم البديع، والثاني أن الله تعالى صرف
النفوس عن معارضته فيقول في ذلك : " وذكرنا من صرف أوهام العرب عن محاولة
معارضة القرآن، ولم يأتوا به مضطربا ولا ملفقا ولا مستكرها" ².

المصدر نفسه، ص 96 ¹

الجاحظ : الحيوان ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، ج6، 1424هـ، ص 455 ²

* القارئ لكتابي الجاحظ " الحيوان ج 4 " و " البيان والتبيين ج 3 " والمتمعن في مضامينهما يجد أنه يفرق بين نظم الكلام ونظم القرآن .

* إذا كان رأي الجاحظ في وجه الإعجاز القرآني هو ذلك النظم الذي انفرد به القرآن في تصوير معانيه وإخراجها على تلك الصورة العجيبة من النظم، فإن ذلك لم يكن رأيا صريحا للجاحظ ، وإنما كان عن طريق الاستدلال والاستنتاج لمقولاته .

* لقد كانت للجاحظ إشارات للنظم والتفرقة بين نظم الكلام ونظم القرآن في كتابه " الحيوان " فيقول: " وفي كتابنا المنزل الذي يدلنا على أنه صدق، نظم البديع الذي لا يقدر على مثله العباد " ¹ ، وفي " البيان والتبيين " يقول: " ألا ترى أنا نزع أن عجز العرب عن مثل نظم القرآن حجة على العجم من جهة إعلام العرب العجم أنهم كانوا عن ذلك عجزة. " ² .

* أشار الجاحظ إلى مصطلحات لها علاقة بالنظم وهي (التلاحم، والسبك، والإفراغ) فيقول: " وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ واحدا، وسبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان. " ³ .

* تحدث أيضا عما له علاقة بالنظم فأورد شروط البلاغة التي من بينها: موافقة الكلام لمقتضى الحال و الموازنة بين المعاني وأقذار المستمعين وأقذار الحالات وكذا متانة العبارة فيقول: " ومعنى ذلك أن الكلام البليغ هو الكلام الذي يبلغ المعاني التي في رأس المتكلم إلى عقل السامع. ولا يتأتى له ذلك إلا إذا كان واضحا وعلى أقذار المعاني. وبذا يخالف الجاحظ مفهوم البلاغة السائد أي الإيجاز. إن الكلام البليغ ليس هو الكلام الموجز وليس الكلام المسهب بل الكلام المساوي للمعاني « وإنما الألفاظ على أقذار المعاني، فكثيرها لكثيرها، وقليلها لقليلها، وشريفها لشريفها، وسخيفها لسخيفها " ⁴ .

الجاحظ : الحيوان ، ج 4 ، 1424 هـ ، ص 305¹

الجاحظ: البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال ، بيروت، ج 3، 1423 هـ ، ص 198²

الجاحظ: البيان والتبيين، ج 1، ص 75³

المصدر نفسه، ج 1، ص 184⁴

*وفي موضع آخر يقول : " ومن شروط البلاغة موافقة الكلام لمقتضى الحال أو للموضوع الذي يجري فيه الكلام. «يجب على المتكلم أن يوازن بين المعاني وأقدار المستمعين وأقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما»، ومن شروط البلاغة متانة العبارة التي تعني ربط ألفاظ الجملة ببعضها ربطا محكما لا هلهلة فيه ولا خلل «فأجود الشعر ما رأيتَه متلاحم الأجزاء سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا وسبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان». ومن شروط البلاغة الطبع، وهو يعني الموهبة وعدم التكلف. وإذا كان الكلام صحيح الطبع بعيدا عن الاستكراه ومنزها عن الاختلال، مصونا عن التكلف صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة..»¹ .

* أضيف إلى ذلك فقد تكلم أيضا عن اللفظة وشروطها فقال : " ومتى كان اللفظ أيضا كريما في نفسه، متخيرا من جنسه، وكان سليما من الفضول، بريئا من التعقيد، حبَّب إلى النفوس، واتصل بالأذهان، والتحم بالعقول وهشَّت إليه الأسماع، وارتاحت له القلوب، وخفَّت على ألسن الرواة، وشاع في الآفاق ذكره، وعظم في الناس خطره، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس، ورياضة للمتعلِّم الرِّيِّض"² .

* فالجاحظ إذن يكون قد عرف معنى النظم ، وأشار إليه في كتاباته، فلا ريب أنّ إحساس الجاحظ العميق بروعة النظم وما يكسبه الكلام من الرونق والحيوية جعله يؤمن أنّ إعجاز القرآن في نظمه ، ويؤلّف في ذلك كتابه المفقود (نظم القرآن) الذي أشار إليه في كتابه(الحيوان) في عنوان " من إيجاز القرآن" فيقول : " وقد ذكرنا أبياتا تضاف إلى الإيجاز وقلة الفضول، ولي كتاب جمعت فيه آيا من القرآن؛ لتعرف بها فصل ما بين الإيجاز والحذف، وبين الزوائد والفضول والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة على الذي كتبتَه لك في باب الإيجاز وترك الفضول"³ .

المصدر السابق¹

المصدر نفسه، ج2، ص 72

الجاحظ : الحيوان ، ج3، ص42³

*ومن ثمة فالإعجاز عنده متصل بالنظم وحده بصرف النظر عما يحويه من المعاني، فالجاحظ بملاحظاتة هذه يكون قد وضع الأسس الأولى لمفهوم النظم الاعتزالي، وقد أكمل أصحاب مذهبه ما ابتدأه، خاصة الذي اهتم بمسألة النظم كالقاضي عبد الجبار.

المحاضرة الثانية عشر:

النظم عند ابن خلدون (الملكة والمنوال ومفهوم الشعر)

* الملكة والمنوال :

يرى ابن خلدون (ت808هـ) أنّ اللغة عبارة عن ملكة في اللسان للتعبير عن المعاني من الجودة والقصور وذلك بالنظر إلى التراكيب فيقول : " اعلم أنّ اللّغات كلّها ملكات شبيهة بالصّناعة إذ هي ملكات في اللّسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها. وليس ذلك بالنّظر إلى المفردات وإنّما هو بالنّظر إلى التّراكيب" ¹.

بعدها يشرح كيفية اكتساب أي ملكة لغوية لتصل إلى قمة البلاغة فيقول : " فإذا حصلت الملكة التّامة في تركيب الألفاظ المفردة للتّعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التّأليف الذي يطبّق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلّم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع وهذا هو معنى البلاغة. والملكات لا تحصل إلّا بتكرار الأفعال

¹ ابن خلدون : المقدمة (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)،

تحق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2، 1408هـ و1988، ص764

لأنّ الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة ثمّ تتكرّر فتكون حالاً. ومعنى الحال أنّها صفة غير راسخة ثمّ يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة.¹

يواصل حديثه عن الملكة ويخصّص هنا ملكة اللسان العربي فيقول : " اللّغة العربيّة موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطبتهم وكيفيّة تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصّبي استعمال المفردات في معانيها فيلقّنها أولاً ثمّ يسمع التراكيب بعدها فيلقّنها كذلك. ثمّ لا يزال سماعهم لذلك يتجدّد في كلّ لحظة ومن كلّ متكلم واستعماله يتكرّر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم. هكذا تصيرت الألسن واللّغات من جيل إلى جيل وتعلّمها العجم والأطفال. وهذا هو معنى ما نقوله العامّة من أنّ اللّغة للعرب بالطّبع أي بالملكة الأولى التي أخذت عنهم ولم يأخذوها عن غيرهم"².

وفي موضع آخر يخاطب كل من يريد اكتساب ملكة اللسان العربي ويعطيه الكيفية وذلك بكثرة حفظ ما يتميز بالجودة فيقول: " لا بدّ من كثرة الحفظ لمن يروم تعلّم اللّسان العربيّ وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرته من قلّته تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ. فمن كان محفوظه من أشعار العرب الإسلاميّين شعر حبيب أو العتّابيّ أو ابن المعتزّ أو ابن هانئ أو الشّريف الرّضيّ أو رسائل ابن المقفّع أو سهل ابن هارون أو ابن الزّيّات أو البديع أو الصّابيء تكون ملكته أجود وأعلى مقاماً ورتبة في البلاغة ممّن يحفظ شعر ابن سهل من المتأخّرين أو ابن النّبيه أو ترسل البيسانيّ أو العماد الأصبهانيّ لنزول طبقة هؤلاء عن أولئك يظهر ذلك للبصير النّاقّد صاحب الذّوق. وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال من بعده ثمّ إجادة الملكة من بعدهما "³.

بيّن ابن خلدون علاقة ارتقاء المحفوظ بجودة الملكة كما أشار إلى معنى المنوال القاصد به القالب الذي يُنسج عليه الكلام فيقول : " فبارتقاء المحفوظ في طبقته من

¹ ابن خلدون : المقدمة، ص765

² المصدر السابق ، ص765

ابن خلدون : المقدمة، ص 796³

الكلام ترتقي الملكة الحاصلة لأنّ الطّبع إنّما ينسج على منوالها وتنمو قوى الملكة بتغذيتها. وذلك أنّ النّفس وإن كانت في جبلّتها واحدة بالنّوع فهي تختلف في البشر بالقوّة والضعف في الإدراكات. واختلافها إنّما هو باختلاف ما يرد عليها من الإدراكات والملكات والألوان التي تكيّفها من خارج. فبهذه يتمّ وجودها وتخرج من القوّة إلى الفعل صورتها والملكات التي تحصل لها إنّما تحصل على التّدرّج كما قدّمناه " ¹.

ليخلص إلى تقسيم الملكة إلى أقسام منها: الملكة الشعرية ، وملكة الكتابة ، والملكة العلمية، والملكة الفقهية ، والملكة التصوفية ، وملكة البلاغة ، وهذا التنويع بحسب طبيعة المحفوظ ويؤكد ذلك قوله : " فالملكة الشّعريّة تنشأ بحفظ الشّعر وملكة الكتابة بحفظ الأسجاع والترسيل، والعلميّة بمخالطة العلوم والإدراكات والأبحاث والأنظار، والفقهيّة بمخالطة الفقه وتنظير المسائل وتفريعها وتخريج الفروع على الأصول، والتّصوّفيّة الرّبانيّة بالعبادات والأذكار وتعطيل الحواسّ الظّاهرة بالخلوة والانفراد عن الخلق ما استطاع حتّى تحصل له ملكة الرّجوع إلى حسّه الباطن وروحه وينقلب ربّانيّاً وكذا سائرهما. وللنّفس في كلّ واحد منها لون تتكيّف به وعلى حسب ما نشأت الملكة عليه من جودة أو رداءة تكون تلك الملكة في نفسها فملكة البلاغة العالية الطّبيقة في جنسها إنّما تحصل بحفظ العالي في طبقته من الكلام " ².

* الشعر:

- انقسام الكلام إلى فني نظم الشعر والنثر :

قسم كلام العرب إلى فنين : الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون المقفي وأوزانه كلها على رويّ واحد أي قافية واحدة ، ثم النثر وهو الكلام غير الموزون وكل منهما يشمل فنونا ومذاهب . ففي الشعر نجد المدح والهجاء والرثاء ، وفي النثر نرى المسجع وهو التزام القافية في كل كلمتين منه ، والمرسل وهو الكلام المنطلق بلا تقييد ، أما القرآن فيخرج عن النوعين ، فليس مرسلا ولا مسجعا ، " بل تفصيل آيات ينتهي إلى

المصدر نفسه، ص 796 ¹

المصدر السابق، ص 797 ²

مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها. ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها ويثنى من غير التزام حرف يكون سجعا ولا قافية وهو معنى قوله تعالى: «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ 39: 23». وقال: «قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ 6: 97». ويسمى آخر الآيات منها فواصل إذ ليست أسجعا ولا التزم فيها ما يلتزم في السجع ولا هي أيضا قواف. وأطلق اسم المثنائي على آيات القرآن كلّها على العموم لما ذكرناه واختصت بأَمّ القرآن للغلبة فيها كالنجم للثريا ولهذا سميت السبع المثنائي " ¹.

– لا تتفق الإجابة في فني المنظوم والمنثور معا إلا للأقل:

إنّ ملكة الفصاحة الفطرية تتم في الطفل العربي منذ نشأته حيث لم يعرف إلا العربية الفصحى . وإذا تنازعت ملكتان تعذر أن تتم الملكتان معا مثل البربري الذي يتعلم العربية ، ولا يمكن للعربية أن تتسيد على لسانه فيظل فيها قاصرا ، فالألسن واللغات مثل الصنائع ، والصنائع وملكاتها لا تزدهم ، ومن سبقت له إجابة في صناعة فقل أن يجيد في صناعة أخرى، ونجد ذلك واضحا في قوله: " والسبب في ذلك أنه كما بيّناه ملكة في اللسان فإذا تسبقت ... إلى محلّة ملكة أخرى قصرت بالمحلّ عن تمام الملكة اللاحقة. لأنّ تمام... الملكات وحصولها للطبائع التي على الفطرة الأولى أسهل وأيسر. وإذا تقدّمتها ملكة أخرى كانت منازعة لها في المادّة القابلة وعائقة عن سرعة القبول ف وقعت المنافاة وتعذر التّمام في الملكة وهذا موجود به في الملكات الصّناعيّة كلّها على الإطلاق. وقد برهنّا عليه في موضعه بنحو من هذا البرهان. فاعتبر مثله في اللّغات فإنّها ملكات اللّسان وهي بمنزلة الصّناعة. وانظر من تقدّم له شيء من العجمة كيف يكون قاصرا في اللّسان العربيّ أبدا " ².

يواصل شرحه بالتمثيل فيقول : " فالأعجميّ الذي سبقت له اللّغة الفارسيّة لا يستولي على ملكة اللّسان العربيّ ولا يزال قاصرا فيه ولو تعلّمه وعلمه. وكذا البربريّ

المصدر السابق، ص 781¹

² ابن خلدون : المقدمة، ص781

والرّوميّ. والإفرنجيّ قلّ أن تجد أحدا منهم محكما لمملكة اللّسان العربيّ. وما ذلك إلّا لما سبق إلى ألسنتهم من ملكة اللّسان الآخر حتّى إنّ طالب العلم من أهل هذه الألسن إذا طلبه بين أهل اللّسان العربيّ جاء مقصّرا في معارفه عن الغاية والتّحصيل وما أوتي إلّا من قبل اللّسان. وقد تقدّم لك من قبل أنّ الألسن واللّغات شبيهة بالصّنائع. وقد تقدّم لك أنّ الصّنائع وملكاتهما لا تزدهم. وأنّ من سبقت له إجادة في صناعة فقلّ أن يجيد في أخرى أو يستولي فيها على الغاية"¹.

- صناعة النظم والنثر في الألفاظ وليس في المعاني:

يرى ابن خلدون أن صناعة الشعر والنثر تكون في الألفاظ ، و ما المعاني إلا تبع للألفاظ التي هي الأصل ، وملكة الشعر والنثر تتكون بالألفاظ وما تضمه من حفظ أشعار وآداب فصيحة، فاللسان نفسه له ملكة النطق بالألفاظ وتكرارها ، وأما المعاني فتكون في الضمائر وهي موجودة لدى الجميع ولكن تحتاج إلى قوالب لفظية فنية من شعر ونثر تخرج فيها ، وبذلك يتميز الأديب عن غيره. وقد شبع المعاني بالماء والألفاظ بالأواني ، وقد تختلف الأواني الذهبية عن الفضية ولكن الماء واحد ، وكذلك جودة اللغة وبلاغتها تختلف باختلاف طبقات الكلام².

يقول ابن خلدون شارحا : " اعلم أنّ صناعة الكلام نظما ونثرا إنّما هي في الألفاظ لا في المعاني وإنّما المعاني تبع لها وهي أصل. فالصّانع الذي يحاول ملكة الكلام في النّظم والنّثر إنّما يحاولها في الألفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب ليكثر استعماله وجريه على لسانه حتّى تستقرّ له الملكة في لسان مضر ويتخلّص من العجمة التي ربّي عليها في جيله ويفرض نفسه مثل وليد نشأ في جيل العرب ويلقّن لغتهم كما يلقّنها الصّبيّ حتّى يصير كأنّه واحد منهم في لسانهم. وذلك أنّا قدّمنا أنّ للسان ملكة من الملكات في النطق يحاول تحصيلها بتكرارها على اللّسان حتّى تحصل شأن

المصدر السابق ، ص 784¹

المصدر نفسه ، ص 794²

الملكات والذي في اللسان والنطق إنما هو الألفاظ وأما المعاني فهي في الضمائر¹

- حصول الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ:

من يريد تعلم اللسان العربي واكتساب ملكته لأبد عليه من كثرة الحفظ ، فعلى قدر جودة المحفوظ تكون جودة الملكة الناشئة عن هذا الحفظ ، وهنا يقول ابن خلدون : " قد قدّمنا أنّه لا بدّ من كثرة الحفظ لمن يروم تعلّم اللسان العربيّ وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرتة من قلّته تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ"²

ففي رأيه من يحفظ للعتابي وابن المعتز وابن المقفع وابن الزيات تكون ملكته أعلى ممن يحفظ للشعراء والأدباء المتأخرين ، فعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال ، ثم إن ارتقاء الملكة مقرون بارتقاء المحفوظ ومن ثمة ينشأ الطبع على منوالها، فالملكات تتطور بالتدرّج سواء كانت في الشعر أم في النثر أم في العلوم أم في التصوف والروحانيات وتتلون معها النفس بذلك وكذلك الملكات داخل النفس³.

وخلاصة القول إنّ مصطلح الملكة اللغوية قد اكتمل واستقر عند ابن خلدون بطريقة أكثر تضجاً وعمقا ، فنالت اهتماما واضحا لديه ، فقدم تنظيرا لهذه الملكة بقوله : " والملكات لا تحصل إلّا بتكرار الأفعال لأنّ الفعل يقع أولا وتعود منه للذات صفة ثمّ تتكرّر فتكون حالا .ومعنى الحال أنّها صفة غير راسخة ثمّ يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة."، ومن ثمة نستخلص أن الملكة اللسانية في التراث العربي لها علاقة وطيدة بالقرآن الكريم والشعر والنثر، وقد عبّروا عنها بالغريزة والطبع

¹ ابن خلدون : المقدمة، ص795

المصدر السابق، ص796²

ينظر: المصدر نفسه، ص796³

، أمّا في الغرب فقد ارتبطت عندهم باللغة الإنسانية التي تدرس في ذاتها ولذاتها عند دي سوسور وكفاءة لغوية عند نعوم تشومسكي.

المحاضرة الثالثة عشر:

النظم ونظرية الأسلوب

* نظرة عن الأسلوب والأسلوبية :

إذا اطلعنا على كتاب ابن خلدون " المقدمة " نجده تكلم بوضوح عن الأسلوب وأساليب العرب المختلفة وضرورة اقتنائها فيقول: " ولا يكفي فيه ملكة الكلام العربيّ على الإطلاق بل يحتاج بخصوصه إلى تلطف ومحاولة في رعاية الأساليب التي اختصته العرب بها واستعمالها فيه. لنذكر هنا سلوك ... الأسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون بها في إطلاقهم. فاعلم أنّها عبارة عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ به. ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل ... المعنى الذي هو وظيفة الإعراب ولا باعتبار إفادته كمال ... المعنى من خواصّ التراكيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض. فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية وإنّما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كليّة باعتبار انطباقها على تركيب خاصّ. وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال ثمّ ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان فيرصّها فيه رصّاً كما يفعل البناء في القالب أو النّساج في المنوال حتّى يتّسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة

اللّسان العربيّ فيه فإنّ لكلّ فنّ من الكلام أساليب تختصّ به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة¹.

أمّا أحمد الشايب فله كتاب سماه " الأسلوب " يرى فيه أنّ الأسلوب يتركز أساسا على العنصر اللفظي " فهو الصورة اللفظية التي يعبر بها عن المعاني أو نظم الكلام وتأليفه لأداء الأفكار وعرض الخيال، أو هو العبارات اللفظية المنسقة لأداء المعاني إلا أننا -حين نريد الإيضاح والتقسيم- مضطرون إلى ملاحظة أمرين: أولهما: وحدة النص الأدبي الذي لا يمكن الفصل بين عناصره، فاللفظ لا يتصور بدون سائر العناصر الأدبية كما أنها لا تبدو بغير اللفظ. ثانيهما: أنّ الفرق بين الأسلوب العلمي والأدبي مثلا لا يمكن إلا بملاحظة ما وراء اللفظ من فكرة أو عاطفة أو خيال، لذلك كان هناك فرق بين تعريف الأسلوب، وتحليله، وبين تقسيمه ... هو فرق أساسه وجهة النظر فقط، وإنّ النص الأدبي وحدة لا تتجزأ " ².

هذا عن الأسلوب، أما الأسلوبية فقد عرفها عبد السلام المسدي قائلا: " علم لساني يُعنى بدراسة مجال التصرف في حدود القواعد البنيوية لانتظام جهاز اللغة " ³ ، وهذا بعدما تحدث عن النحو والأسلوبية ومجالتهما فقال: " فالأول هو مجال القيود والأسلوبية مجال الحريات ، وعلى هذا الاعتبار كان النحو سابقا في الزمن للأسلوبية إذا هو شرط واجب لها، فكل أسلوبية هي رهينة القواعد النحوية الخاصة باللغة المقصودة ، ولكنها مُراهنة ذات اتجاه واحد، لأننا إذا سلمنا بأن لا أسلوب بدون نحو، فلا نستطيع إثبات العكس فنقول: لا نحو بلا أسلوب . على هذا المقتضى يحدد لنا النحو مل لا نستطيع أن نقول من حيث يضبط لنا قواعد الكلام ، بينما تقفوا الأسلوبية ما بوسعنا أن نتصرف عند استعمال اللغة " ⁴.

ابن خلدون: المقدمة، ص 786¹

الشايب أحمد : الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية، ط2، 12، 2003، ص46²

المسدي عبد السلام: الأسلوب والأسلوبية ، مكتبة لسان العرب، ط3 ، دت ، ص 55³

المسدي عبد السلام: الأسلوب والأسلوبية ، ص 56⁴

وفي موضع آخر يقر بأنّ الأسلوبية هي عبارة عن منج علمي في طرق الأسلوب الأدبي، فتحدده وتضبط السبل العملية لتحليله اختباريا على حد تعبيره¹ ، ويواصل كلامه ذاكرة بعض رواد الأسلوبية فيقول : " قد ألح كل رواد الأسلوبية فضلا عن نقاد الأدب الكلاسيكيين منهم و الطلائعيين على البعد الإنشائي الذي يُتوظّف به الأسلوب في عملية الإفراز الفني، طالما أنّ الأسلوب هو الميزة النوعية للأثر الأدبي ولا يعرف إلا بما يميزه ، وعلى هذا المستند يقرر قيرو أنّ الأسلوب هو الذي يقي عملية الخلق من الإجهاض ، ويذهب ستاروبنسكي إلى أنّه المحدد لصيرورة الحدث اللساني نحو الظاهرة الأدبية مثلما أنّ الظاهرة الأدبية لا تُستوعب إلا من خلال تركيبها اللساني " ².

أمّا أحمد الشايب ففكك الظاهرة الأدبية إلى عناصر أربعة : العاطفة والفكرة والخيال والعبارة اللفظية الذي يسميه الأسلوب فيقول: " وقد ظفنا بعنصرين من عناصر الأدب: العاطفة Emotion والفكرة Thought... فهذه الصور تؤلف عنصراً ثالثاً هو الخيال Imagination وهو لازم في كثير من الأحيان للتعبير عن العاطفة. وأخيراً نجد العبارة اللفظية التي قد تسمى الأسلوب Style وهي الوسيلة اللازمة لنقل أو إظهار ما نفس الأديب من تلك العناصر المعنوية فصار الأدب ينحل إلى هذه العناصر الرئيسية الأربعة " ³.

" وعليه تعنى الأسلوبية بدراسة مجال التصرف في حدود القواعد البنيوية لانتظام جهاز اللغة ، وتسعى إلى تحديد الخصائص اللغوية التي بها يتحول الخطاب من سياقه الإخباري إلى وظيفته التأثيرية الجمالية ، وهنا تطرح الأسلوبية تساؤلا عن الذي يجعل الخطاب الأدبي الفني مزدوج الوظيفة والغاية ، ويؤدي ما يؤديه الكلام عادة وهو إبلاغ الرسالة الدلالية " ⁴.

ينظر: المرجع نفسه، ص 109¹

المرجع السابق ، ص 110²

الشايب أحمد : الأسلوب، ص 12³

⁴ سعدية نعيمة : (التفكير الأسلوبي في الموروث العربي)، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر بسكرة ، العدد 20 ، 2010 ، ص 212

للأسلوبية اتجاهات مختلفة في دراسة النصوص الأدبية ، فهناك من اهتم بعلاقة المبدع بالنص و مدى انعكاس شخصيته على نصه ، وهناك من ركز على الذات النفسية للمبدع بحكم أنّ النص وسيلة للوصول إلى نفسية الكاتب ، بينما الآخر يقوم برصد الظواهر اللغوية التي تسهم في بروز أسلوب المبدع و تحديد تلك الخصائص المميزة له ، واتجاه آخر اهتم بجعل القارئ يقوم باستخراج الظواهر الأسلوبية و الربط بين الأحكام و العلل وتبين الأثر الذي تتركه في النص، ومن ثمة فالاتجاهات أربعة : الأسلوبية التعبيرية ، والأسلوبية النفسية ، والأسلوبية البيئية (الوظيفية) ، والأسلوبية الإحصائية¹ .

* نظرية النظم و ملامح الأسلوبية فيها :

يتبوأ كتابا عبد القاهر الجرجاني " أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز " مكانة متميزة في البحث الأسلوبي لما يتميزان به من عمق في التنظير والتطبيق للدرس البلاغي الحي ، ويكفيه في ذلك أنّه واضع علمي المعاني والبيان، ومُرسّي دعائم نظرية النظم الشاهدة له بعبقرية فذة في الجمع بين العلم والفن والذوق الرفيع².

أضاف الجرجاني على البحث البلاغي " لمسات فنية عكسها منهجه التحليلي الجمالي الذي سعى من خلاله إلى استنتاج عوالم النص وسبر أغواره للوقوف على خصائصه الأسلوبية المشحونة بألوان الانزياح الذي تتجلى على إثره سمات المبدع الفارقة له عن غيره، وهو ما أكدته الدراسات الأسلوبية المعاصرة حينما جعلت الأسلوب كاشفا عن نمط تفكير صاحبه"³.

" وقد تعمقت نظرتّه إلى الأسلوب الذي كان يعتبره " الضرب من النظم والطريقة فيه". وينفي أن يكون مرجع بلاغة الخطاب إلى اللفظ على حدة، أو إلى المعنى الغفل، أو إلى الصور البيانية بمنأى عن مكانها من النظم. إنّما مردّ ذلك إلى

ينظر: أبو العدوس يوسف: الأسلوبية الرؤية والتطبيق، دار السيرة، الأردن، 2007، ص¹

² ينظر: حمزاني عبد القادر: (الفكر الأسلوبي لدى عبد القاهر الجرجاني)، مجلة جسور المعرفة، جامعة حسيبة بوعلي الشلف، العدد 10 ، 2017، ص376

³ حمزاني عبد القادر: (الفكر الأسلوبي لدى عبد القاهر الجرجاني)، ص376

الأسلوب القائم على توخي معاني النحو وحسن التأليف بين الوحدات التي يجمعها حسن الصياغة والتعبير. ولتمثل ذلك الأمر لأبد من معرفة أسرار النظم ودقائقه ووجوهه، وما يترتب عن نسق الخطاب من أثر في نفسية المتلقي، كان قد حاز قصب السبق في هذا المجال ، وجمع فأوعى، وأجاد فأفاد" ¹ .

" وقد اعتمد في إصدار أحكامه على فكر ثاقب ونظر فاحص في أسرار التراكيب وما تقتضيه الصنعة العالية المتميزة. وقد تضمنت نظرية النظم في كثير من أصولها ما تقوم عليه الأسلوبية المعاصرة لأنّ عبد القاهر كان قد أكد فكرة اختلاف الأسلوب باختلاف ترتيب الكلام فيّ أوضاعه المختلفة وما يعترّيه من ظواهر مختلفة كالقديم والتأخير والحذف والذكر والإضمار والإظهار، وما يبني عليه من وجوه البيان والبدیع" ² .

فلو اطلعنا على باب المعاني والمواضيع التي طرحها الجرجاني لوجدنا أنه كان يتحدث عن خصائص الأسلوب ومميزاته ف" لم يرغب عن وعيه ذلك المفهوم وهو ينظر للنظم ويرسي دعائمه، وهو □ بهذا العمل يكون قد فتح أبواب مسائل كثيرة، وأصل لفكر أسلوبى ظلّ بحاجة ماسة إلى دراسة وإثراء. ولنا أن نستحضر فيّ هذا المقام بعض الأفكار الأسلوبية التي تعرض لها عبد القاهر وهو يؤصل لنظرية النظم ويرسي دعائمه نحو علاقة اللغة بأهلها. وما ترتّب عن ثنائية اللغة والكلام التي نادى بها □ دي سوسير واستفادت منها الأسلوبية في إرساء دعائمه الفكرية. وكذا ما عرفته ظاهرة العدول من اهتمام متميّز في الدراسات الأسلوبية" ³ .

ولتأكيد ما سبق ذكره سنأخذ أمثلة توضيحية تؤكد نظريته الأسلوبية وتناولها للمسائل الأسلوبية المتداولة :

*** العلاقة الوظيفية بين النص وصاحبه:**

المرجع نفسه ، ص 376¹

المرجع السابق، ص 377²

حمراني عبد القادر: (الفكر الأسلوبى لدى عبد القاهر الجرجاني)، ص 377³

وقد أشار إلى ذلك بعبارة " الرحم بينه وبين منشئه " حينما تكلم عن اللفظ والمعنى وقال بأنه إذا أحدثنا أي تغيير مهما كان نوعه في بيت شعر أو فصل نثر فإن ذلك يؤدي إلى إبطال نظمه ونظامه وتغيير نسقه وأسقطت نسبته إلى صاحبه ومن ثمة قطعت الرحم بينه وبين منشئه ومؤلفه، وهذا في قوله : " فلو أنك عمّدت إلى بيت شعرٍ أو فصلٍ نثرٍ فعددت كلماته عدّاً كيف جاء واتّفق، وأبطلت نضدهُ ونظامه الذي عليه بني، وفيه أفرغ المعنى وأجري، وغيّرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد، وبَنَسَقَه المخصوص أبان المراد، نحو أن تقول في: "من الطويل قفا نَبْكَ من ذِكْرِي حَبِيبٍ ومنزل " منزل قفا ذكرى من نبك حبيب، أخرجته من كمال البيان، إلى مجال الهدّيان، نعم وأسقطت نسبته من صاحبه، وقطعت الرّحم بينه وبين مُنشئه، بل أخلّت أن يكون له إضافةٌ إلى قائل، ونَسَبٌ يَخْتَصُّ بمتكلم، وفي ثبوت هذا الأصل ما تَعَلَّم به أن المعنى الذي له كان هذه الكلم بيت شعرٍ أو فصلٍ خطابٍ، هو ترتيبها على طريقة معلومة، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة، وهذا الحُكْمُ - أعني الاختصاص في الترتيب - يقع في الألفاظ مرتباً على المعاني المرتبة في النفس، المنتظمة فيها على قضية العقل، ولا يُتَصَوَّر في الألفاظ وجوبٌ تقديم وتأخير، وتخصُّصٌ في ترتيب وتنزيل، وعلى ذلك وُضِعَت المراتبُ والمنازلُ في الجمل المركّبة

1» .

* اللفظ و المعنى أو الشكل والمضمون كما سماه النقاد المحدثون:

في هذه القضية خالف الجرجاني سابقيه ومعاصريه، فمنهم من تشييع للفظ والآخر انتصر للمعنى أما هو فقد وقف موقفاً وسطاً مبيناً لهما، و مذهب هذا مشا□ به لما نصت عليه الأسلوبية التي تنظر إلى النص على أنه كيان لغوي واحد شكلاً ومضموناً، ومن ثمة لا مجال للفصل بينهما أو البحث في أحدهما دون الآخر، وقد أكّد ذلك الجرجاني في مواضع عديدة من كتابه " دلائل الإعجاز " منها الموضع الذي يبيّن فيه الترابط العضوي بين اللفظ والمعنى وعلاقتها بالنظم فيقول: " هذا، وأمرُ "النظم" في أنه ليس شيئاً غيرَ توخّي معاني النحو فيما بينَ الكَلَم، وأن ترتب المعاني في أنه

الجرجاني عبد القاهر: أسرار البلاغة، ص4 و5¹

ليس شيئاً غير توحي معاني النحو فيما بين الكلم، وأنتك ترتب المعاني، أولاً في نفسك، ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك، وأنا لو فرضنا أن تخلوا الألفاظ من المعاني، لم يتصور أن يجب فيها نظم وترتيب... في غاية القوة والظهور، ثم ترى الذين لهجوا بأمر "اللفظ" قد أبوا إلا أن يجعلوا "النظم" في الألفاظ. ترى الرجل منهم يرى ويعلم أن الإنسان لا يستطيع أن يجيء بالألفاظ مرتبة إلا من بعد أن يفكر في المعاني ويرتبها في نفسه على ما أعلمناك، ثم تفتشه فتراه لا يعرف الأمر بحقيقته، وتراه ينظر إلى حال السامع، فإذا رأى المعاني لا تقع مرتبة في نفسه إلا من بعد أن تقع الألفاظ مرتبة في سمعه، نسي حال نفسه، واعتبر حال من يسمع منه... وسبب ذلك قصر الهمة، وضعف العناية، وترك النظر، والأنس بالتقليد. وما يغني وضوح الدلالة مع من لا ينظر فيها"¹.

وفي موضع آخر يقول: "وليت شعري، هل كانت الألفاظ إلا من أجل المعاني؟ وهل هي إلا خدم لها، ومصرفة على حكمها؟ أو ليست هي سمات لها، وأوضاعاً قد وضعت لتدل عليها؟"².

* اللغة والفكر:

كشف الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز" عن الترابط العضوي بين اللغة والفكر، فلم يفصل بينهما إلا فصلاً مظهرياً وذلك لإيمانه بمتانة هذه الرابطة وثباتها فيقول: "ليس الغرض بنظم الكلم، أن توالى ألفاظها في النطق... بل أن تناسقت دالاتها. وتلاقى معانيها، على الوجه الذي اقتضاه العقل. وكيف يتصور أن يقصد به إلى توالي في النطق، بعد أن ثبت أنه نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وأنه نظير الصياغة والتخبير والتقويف والنقش، وكل ما يقصد به التصوير"³.

بعدها يعطي دليلاً آخر لتأكيد كلامه فيقول: "ودليل آخر، وهو أنه لو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه، دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس، ثم النطق

الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص 454 و 455¹

المصدر نفسه، ص 417²

المصدر نفسه، ص 50³

بالألفاظ على حدّوها، لَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ لَا يَخْتَلِفَ حَالُ اثْنَيْنِ فِي الْعِلْمِ بِحُسْنِ النِّظْمِ أَوْ
غَيْرِ الْحَسَنِ فِيهِ، لِأَنَّهُمَا يَحْسَبَانِ بِتَوَالِي الْأَلْفَافِ فِي النُّطْقِ إِحْسَاساً وَاحِداً، وَلَا يَعْرِفُ
أَحَدُهُمَا فِي ذَلِكَ شَيْئاً يَجْهَلُهُ الْآخَرُ¹.

* العدول التركيبي والعدول الدلالي :

المتأمل في كتابي الجرجاني " أسرار البلاغة " و " دلائل الإعجاز " يجد أنّه قد
تحدّث عن ظاهرة العدول بنوعيهما التركيبي والدلالي دارساً ومحللاً ومبرزاً " خصائصها
الفنية وما تتطوي عليه من طاقات تعبيرية وشحنات إيحائية. حيث بيّن بأنّ البنية
الأصلية للجملة العربية تعترضها عوارض شتى تعدل □ بها عن أصلها المفترض
لأغراض يتطلبها المقام، وتوجهها مقاصد الكلام. ولا ترد هذه العوارض إلّا لتقرير
فكرة وإضافة معنى لاسبيل إليه من دونها. وما ذاك إلّا لأنّ معنى الكلام مرتبط بترتيب
أجزائه، وطبيعة أوضاعه " ² .

كشف الجرجاني عن الآليات التي يتحقق من خلالها العدول وهي مرتبطة ارتباطاً
وثيقاً بالنظم الذي هو توخي معاني النحو وأحكامه وفروقه ووجوهه فيما بين معاني
الكلم ، فمن آليات العدول التركيبي: الإظهار والإضمار، التعريف والتكثير، والتقديم
والتأخير، والذكر والحذف ، أمّا عن العدول الدلالي فينتج عن مقتضيات النظم من
مجاز واستعارة وتشبيه وتمثيل وغيرها، فتوظيف هذه الآليات هو الذي يلحق بالجملة
العدول ويُخرجها عن أصلها³ .

وأمثلة العدول التركيبي قوله : " اعلم أن ليس "النظم" إلّا أن تضع كلامك
الوضع الذي يقتضيه "علم النحو"، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه
التي نُهجَتْ فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رُسِمَتْ لك⁴، فلا تُخلّ بشيءٍ منها.
وذلك أنّنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كلّ باب وفروقه،
فينظر في "الخبر" إلى الوجوه التي تراها في قولك: "زيدٌ منطلقٌ" و "زيدٌ ينطلقُ"، و

المصدر نفسه، ص 51¹

حمراني عبد القادر: (الفكر الأسلوبى لدى عبد القاهر الجرجاني)، ص 382²

ينظر: المرجع نفسه ، ص 383³

"ينطلقُ زيدٌ" و "منطلقُ زيدٌ"، و "زيدُ المنطلقُ" و "المنطلقُ زيدٌ" و "زيدٌ هو المنطلقُ"، و زيدٌ هو منطلقٌ". وفي "الشرطِ والجزاء" إلى الوجوه التي تَرَاهَا في قولك: "إِنْ تَخْرُجَ أخرجُ" و "إِنْ خَرَجْتَ خرجْتُ" و "إِنْ تخرجُ فأنا خارجٌ" و "أنا خارجٌ إِنْ خرجتُ" و "أنا إِنْ خرجتُ خارجٌ" وفي "الحالِ" إلى الوجوه التي تَرَاهَا في قولك: "جاءني زيدٌ مسرعاً"، و "جاءني يسرع"، و "جاءني وهو مسرعٌ أو وهو يُسرع" و "جاءني قد أُسرِعَ" و "جاءني وقد أُسرِعَ". فيَعْرِفُ لِكُلِّ من ذلك موضِعَهُ، ويجيءُ به حيثُ ينبغي له ¹.

وفي موضع آخر يشرح الأمثلة التي أعطاها فيقول: "ومن فروقِ الإثباتِ أَنَّكَ تقولُ: "زيدٌ منطلقٌ" و "زيدُ المنطلقُ" و "المنطلقُ زيدٌ"، فيكون لك في كُلِّ واحدٍ من هذه الأحوالِ غَرَضٌ خاصٌّ وفائدةٌ لا تكونُ في الباقي. وأنا أفسِّرُ لك ذلك. ... اعلم أَنَّكَ إذا قلتَ: "زيدٌ منطلقٌ"، كَانَ كَلَامُكَ مع مَنْ لم يَعْلَمْ أَنَّ انطلاَقاً كَانَ، لَا مِنْ زَيْدٍ وَلَا مِنْ عَمْرٍو، فَأَنْتَ تُقَيِّدُهُ ذَلِكَ ابتداءً. وإذا قلتَ: "زيدُ المنطلقُ" كَانَ كَلَامُكَ مع مَنْ عَرَفَ أَنَّ انطلاَقاً كَانَ، إِنْ مِنْ زَيْدٍ وَإِمَّا مِنْ عَمْرٍو، فَأَنْتَ تُعَلِّمُهُ أَنَّهُ كَانَ مِنْ زَيْدٍ دون غيره. " ².

بعدها يزيد في التفصيل أكثر فيقول: "والنُّكْتَةُ أَنَّكَ تُثَبِّتُ في الأولِ الذي هو قولك: "زيدٌ منطلقٌ" فِعْلاً لم يَعْلَمْ السامِعُ من أصله أَنَّهُ كَانَ، وَتُثَبِّتُ في الثاني الذي هو "زيدُ المنطلقُ" فِعْلاً قد عَلِمَ السامِعُ أَنَّهُ كَانَ، وَلَكِنَّهُ لم يَعْلَمْهُ لِزَيْدٍ، فَأَقْدَتُهُ ذَلِكَ. فقد وافقَ الأولُ في المعنى الذي له كَانَ الخبرُ خبراً، وهو إثباتُ المعنى للشيء" ³.

ومن أمثلة العدول الدلالي الاستعارة فيقول: "وَإِنْ أَرَدْتَ أُعْجِبَ من ذلك فيما ذَكَرْتُ لَكَ، فَانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ وَقَدْ تَقَدَّمَ إِنْشَادُهُ قَبْلُ:

سَالَتْ عَلَيْهِ شِعَابُ الْحَيِّ حِينَ دَعَا ... أَنْصَارُهُ بِوَجْهِهِ كَالدَّنَانِيرِ

فإِنَّكَ تَرَى هَذِهِ الاستعارة، عَلَى لُطْفِهَا وَغَرَابَتِهَا، إِنَّمَا تَمَّ لَهَا الْحَسَنُ وَانْتَهَى إِلَى حَيْثُ انْتَهَى، بِمَا تُؤَخِّي فِي وَضْعِ الْكَلَامِ مِنَ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، وَتَجِدُهَا قَدْ مَلَحَتْ وَلَطْفَتْ

¹ الجرجاني عبد القاهر : دلائل الإعجاز، ص 81

المصدر نفسه، ص 177²

المصدر نفسه، ص 178³

بمعاونة ذلك ومؤازرته لها. وإن شككت فاعمد إلى الجارين والظرف، فأزل كلا منها عن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه، فقل: "سالت شعاب الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره"، ثم انظر كيف يكون الحال، وكيف يذهب الحسن والحلاوة؟ وكيف نعدم أريحياتك التي كانت؟ وكيف تذهب النشوة التي كنت تجدها؟ " ¹

وفي موضع آخر يعود إلى البيت ويشرحه بطريقة أخرى مبرزاً بدائع الاستعارة فيقول: " ومثل هذه الاستعارة في الحسن واللفظ وعلو الطبقة في هذه اللفظة بعينها قول الآخر: سالت عليه شعاب الحي حين دعا ... أنصاره بوجوه كالدنانير أراد أنه مطاع في الحي، وأنهم يسرعون إلى نصرته، وأنه لا يدعوهم لحرب أو نازل خطب، إلا أتوه وكثروا عليه، وازدحموا حواليه، حتى تجدهم كالسيول تجري من ههنا وههنا، وتنصب من هذا المسيل وذلك ¹، حتى يعص بها الوادي ويطفح منها. " ² .

وخلاصة القول إن عبد القاهر الجرجاني قد استطاع أن يستوعب ثقافة عصره ويستفيد من غيره من نحويين وبلاغيين ولغويين، ومن ثمة يصوغ نظرية النظم التي تتضمن خصائص الأسلوب وأثره البلاغي والجمالي ، فلم يقف عند ظواهر الأشياء مما يعتري الجملة من تقديم وتأخير وتعريف وتكثير وذكر وحذف وإضمار وإظهار، ولا ما تضمنته من استعارة و كناية وتمثيل وتشبيه ومجاز، وإنما تجاوز ذلك كله ليكشف عن وجوه المزية وما توخى فيها الناظم من معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم .

المصدر السابق ، ص 99 ¹

المصدر نفسه ، ص 74 و 75 ²

المحاضرة الرابعة عشر: النظم والنظريات الحديثة

* تمهيد :

أجمع العديد من الدارسين والباحثين على وجود البعد الحداثي في الفكر البلاغي الجرجاني¹ ، فيرى أحدهم أنّ " النظم يمثل مكوناً في نظرية لغوية لا تقل سماتها وضوحاً عن سمات أي نظرية لغوية حديثة. والواقع أنّ مفهوم " النظم " يمثل العمود الفقري لنظرية لغوية عربية لا تقل تكاملاً من ناحية - اتساقها على الأقل - عن أي نظرية لغوية حديثة بما في ذلك نظرية فرديناند دي سوسير التي اتخذتها علوم اللغة نقطة انطلاق إلى تشعبات وتقريعات لغوية ونقدية شبه لانهائية " ².

* نظرية النظم ونظرية دي سوسير :

من أهم الأفكار التي طرحها دي سوسير ما يلي:
- ميّز بين ثلاث مستويات من اللغة : اللغة كنظام واللغة كصياغة واللغة كمنطق، فاللغة كنظام ينقسم إلى قسمين: جانب زمني وقد شبهه بلعبة الشطرنج والزمن المعين الذي توضع فيه القطع بين اللاعبين تحدده اللعبة السابقة واللعبة اللاحقة ، أما الجانب الوصفي فينظر إلى العلاقة السياقية في الكلمة، أما المستوى الثاني فهو اللغة كصياغة فعلى سبيل المثال : " ضرب زيد حساماً " فحسام مفعول به ، و " ضرب حساماً " فحسام نائب الفاعل ، " حسامٌ ضربه زيد " فحسام مبتدأ وهكذا اختلاف الصيغ لاختلاف السياقات ³.

ينظر : بلخير أرفيس: نظرية النظم بين الأصل النظري والبعد الفكري، ص 239¹

حمودة عبد العزيز : المرايا المقعرة، علم المعرفة، الكويت، 2001، ص 22²

³ ينظر : بلخير أرفيس: نظرية النظم بين الأصل النظري والبعد الفكري، ص 239 و 240

- فرّق بين اللغة والكلام بحكم أن اللغة منظومة من الأصوات الدالة تعارف عليها مجتمع من المجتمعات ، والكلام خاص بالآداء الفردي ضمن سياق معين ¹.

وبعد المقارنة بين النظريتين نجد مايلي²:

- فرّق الجرجاني بين اللغة والكلام جاعلا اللغة في جانبها النظري فيما يسمى "بعلم اللغة"، أما الكلام فيقع في الجانب التطبيقي فيما يسمى بـ " العلم بالوضع اللغوي" ، بينما دي سوسير فيرى أن اللغة منظومة من الأصوات الدالة تعارف عليها المجتمع والكلام يخص الآداء الفردي ، ونشير أيضا إلى أن الجرجاني أكد على ضرورة معرفة المتكلم للمعاني التي يؤديها وهو الأمر الذي أشار إليه دي سوسير حينما قال بأن اللغة لها أهداف معينة في التواصل إذا تقوم بالربط بين الصورة السمعية بالصورة الذهنية .

- للجرجاني مصطلح " التعلق" بينما يطرح دي سوسير مصطلح " العلاقات" ، ويستخدم الجرجاني مصطلح " النظم " وهو ما أشار إليه دي سوسير بمصطلحين هما " النظام والبناء " .

- يشترك الجرجاني مع دي سوسير في النقاط الآتية :

- ليس للصوت معنى وله بعد دلالي ومعنوي

- الدلالة اللغوية ما هي إلا اصطلاح تواضع عليه المجتمع بحسب ما يقتضيه الفكر .

- يعود اختلاف اللغات إلى الاختلاف في عملية التواضع عند مجتمع ما .

- مصطلح " التأليف " عند الجرجاني يقابله مصطلح " التركيب" عند دي سوسير .

- الكلمة عند الجرجاني ليس لها فائدة إلا بضمها مع أخواتها داخل التأليف أو الكلام، وهذا ما أشار إليه دي سوسير حينما رأى أنّ الكلمة لا تعني شيئا ما لم تكن داخل التركيب مع الكلمات الأخرى.

- الصورة الكلامية الموجودة داخل النص عند الجرجاني تحددها الوظيفة التعبيرية التي تقوم بتأديتها الجملة من حيث الإخبار (التقرير) أو الاستخبار (الاستفهام وغيره)،

ينظر: المرجع السابق ، ص241 و 242¹

ينظر: المرجع نفسه، ص243 و 244 و 245 و 246 و 247²

ويقابله عند دي سوسير قوله أنّ الجمل تخدم نظام الكلام المحدد للنسق بحسب المعنى الوظيفي في الجملة الإخبارية والاستخبارية .

* نظرية النظم والنظرية التوليدية التحويلية :

- تقوم النظرية التوليدية التحويلية على ركيزتين أساسيتين هما :

1- **التوليد** وهو " من أهم المفاهيم التي جاء بها (ن ت ت) وتميز به، ويقصد به القدرة على الإنتاج غير محدود للجمل، انطلاقاً من العدد المحصور من القواعد - في كل لغة - وفهمها، ثم تمييزها عما هو غير سليم نحويًا ¹، وهذا يدل على القدرة التي يمتلكها كل إنسان لتكوين عدد لا متناه من الجمل في لغة الأم وفهما ².

2- **التحويل**: وهو أحد أهم المقومات المعرفية التي جاء بها نواو تشومسكي، وفكرة التحويل هذه تبرز مدى امتلاك الإنسان كفاءة لغوية يستطيع من خلالها توليد العديد من الجمل انطلاقاً من جملة الأصل اعتماداً على قواعد لغوية معينة، فالقوانين والقواعد محدودة بينما الجمل المنطوق بها غير محدودة ³.

ويمكن أن نجمل أهم النقاط التي تقوم عليها هذه النظرية ⁴ بما يلي :

- رفض تشومسكي المنهج الوصفي في النحو لأنه لا يدرك الجوانب الإنسانية في اللغة كما أنه ذكر الواقع اللغوي من خلال التعامل مع الآخرين.

- ربط اللغة بالجانب العقلي .

- تناول البنية السطحية والبنية العميقة في التركيب مع إعطاء أمثلة على ذلك .

- الجملة هي الوحدة الأساسية فيها بنية سطحية وبنية عميقة وما يحدث فيها من تقديم وتأخير هو الذي يجعلها قابلة إلى تحويلات كثيرة .

العلوي شفيقة : محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، أبحاث للترجمة والنشر والطبع، بيروت، ط1،

2004، ص 41 و 42 ¹

ينظر: العلوي شفيقة : محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، ص 42 ²

ينظر: المرجع نفسه، ص 56 ³

⁴ ينظر : بلخير أرفيس: نظرية النظم بين الأصل النظري والبعد الفكري، ص 248 و 249

ومن أهم نقاط التقارب والاختلاف بين المدرسة التوليدية التحويلية والمنهج الجرجاني ما يلي¹:

- تعد الجملة هي الوحدة الأساسية تحتوي على البنية السطحية والبنية العميقة فتقوم القواعد التحويلية بتنظيم العلاقة بينهما .

- مراعاة التغيرات الواقعة في الجملة والناجمة عن التقديم والتأخير في الموضع فنتج عن ذلك تغير في المعنى وظهور تحولات في القواعد، وفي المقابل نجد الجرجاني في كتابيه " أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز " يميز بين التقديم على نية التأخير والتقديم لا على نية التأخير وكلاهما أدى إلى ظهور تحولات قواعدية ، كما أنه تحدّث عن البنية الظاهرة والبنية العميقة ما أدى إلى استظهار دلالات مختلفة في المعنى وهذا كله في باب الاستعارة.

- تنطلق المدرسة التوليدية التحويلية من الجملة بجعلها وحدة جزئية ثم يعممون النتائج في القاعدة والنظرية ، بينما الجرجاني فينطلق من النص الأدبي بعده وحدة كلية ثم تحلل أجزأؤه وتحدد نتائجها .

وخلاصة القول فإنه لابد من أن " ننوه باتساع نظرية عبد القاهر بشموليتها وتناولها المنهجي للدرس اللغوي والأدبي معاً، وفي احتوائها للقاعدة النحوية وتطويعها في معالجة الخطاب الأدبي بقطبيه الشعري والنثري على السواء والاعتماد على هذه الرؤية في المنظور النقدي قاطبة " ² ، بينما منهج دي سوسير ومنهج تشومسكي فأصحابه يركزون اهتمامهم على متابعة الدرس اللغوي فحسب فيدرسون ظاهرتهم وقواعده وقوانينه، ومن ثمة كان التفوق حليف الجرجاني لكونه تمكن من جعل النص الأدبي ميداناً فسيحاً للبحث فيه واستكناه جواهر خفية فيه .

قائمة المصادر والمراجع

المرجع نفسه ، ص 250 و 251¹

عباس محمد : الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر ، دمشق، 1999 ، ص 32²

- ✓ أبو العدوس يوسف: الأسلوبية الرؤية والتطبيق، دار السيرة، الأردن، 2007.
- ✓ أحمد خليل : المدخل إلى دراسة البلاغة العربية، بيروت، 1968.
- ✓ أرسطو : فن الشعر، ترجمة عبد الرحمن بدوي، القاهرة، 1959.
- ✓ أرسطو: فن الخطابة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، القاهرة، 1953.
- ✓ أرفيس بلخير: نظرية النظم بين الأصل النظري والبعد الفكري ، البدر الساطع للطباعة والنشر، الجزائر، دت .
- ✓ ابن خلدون : المقدمة(ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، تحقق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2، 1408هـ و1988 .
- ✓ ابن الربيع الشافعي خالد : نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية المعلمين ، جازان ، دت ، دص (عبارة عن مطبوعة pdf).
- ✓ ابن فارس أحمد : مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، ج5، 1399هـ و1979م.
- ✓ ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن ،تح إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ✓ ابن المقفع: الأدب الصغير، دار ابن القيم، الإسكندرية، دت.
- ✓ ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، ج12.
- ✓ ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، ج12، 1414هـ،(نظم).
- ✓ الباقلاني: إعجاز القرآن ،دار المعارف ، القاهرة ، دت.
- ✓ الجاحظ : الحيوان ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، ج6، 1424هـ.
- ✓ الجاحظ: البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال ، بيروت، ج3، 1423هـ.

- ✓ الجرجاني عبد القاهر: المقتصد في شرح الإيضاح، تحقق: كاظم بحر المرجان، دار الرشيد للنشر، المجلد 1، العراق، 1982 .
- ✓ الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، تحقق: محمود محمد شاكر، دار المدني ، جدة، 1413 هـ و 1992م، مقدمة الكتاب .
- ✓ الجرجاني الشريف: التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1401 هـ و 1983.
- ✓ الجوهري: تاج اللغة وصحاح العربية، دار العلم للملايين ، بيروت، ط4، ج5، 1407 هـ و 1987 .
- ✓ حسين عبد القادر: أثر النحاة في البحث البلاغي، دار غريب، القاهرة .
- ✓ حمراي عبد القادر: (الفكر الأسلوبى لدى عبد القاهر الجرجاني)، مجلة جسور المعرفة، جامعة حسنية بوعلى الشلف، العدد 10 ، 2017.
- ✓ الحموي ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط2، ج4، 1995.
- ✓ حميد البياتي سناء: قواعد النحو العربى فى ضوء نظرية النظم، دار وائل للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، 2003.
- ✓ الخطابى : بيان إعجاز القرآن، دار المعارف، مصر، ط3 ، 1976م.
- ✓ رحمانى الطيب: (الأصول الفكرية لنظرية النظم فى التراث العربى) ، مجلة الكلمة، العدد 148، 2019.
- ✓ الرمانى : النكت فى إعجاز القرآن ، دار المعارف، مصر، ط3 ، 1976م
- ✓ الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، ج33.
- ✓ سعدية نعيمة : (التفكير الأسلوبى فى الموروث العربى)، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر بسكرة ، العدد 20 ، 2010.
- ✓ السكاكى: مفتاح العلوم ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط2، 1407 هـ و 1987.
- ✓ الشايب أحمد : الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية، ط12، 2003 .

- ✓ سيبويه: الكتاب ، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، ج1408، 1هـ و1988م.
- ✓ عباس محمد : الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر ، دمشق، 1999.
- ✓ العسكري أبو هلال : الصناعتين ، تح: علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية، بيروت، 1419هـ .
- ✓ العلوي شفيقة : محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، أبحاث للترجمة والنشر والطبع، بيروت، ط1، 2004.
- ✓ الطبري : جامع البيان في تأويل القرآن، تحق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1 ، ج1، 1420هـ و 2000 .
- ✓ الفراهيدي الخليل بن أحمد: العين، دار ومكتبة الهلال، ج8 .
- ✓ المبرد : البلاغة، تحق: رمضان عبد التواب، مكتبة الثقافة الدينية، ط2، 1405هـ و1985.
- ✓ المبرد : المقتضب، تح: محمد عبد الخالق عزيمة، عالم الكتب، بيروت، ج3.
- ✓ المسدي عبد السلام: الأسلوب والأسلوبية ، مكتبة لسان العرب، ط3 ، دت .
- ✓ وهيب بن حدو: الدرس البلاغي عند المبرد (شهادة أعدت لنيل الدكتوراه)، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، كلية الآداب واللغات .

فهرس المحتويات

المحاضرة الأولى:

مفهوم النظم بدايات أولى ص 4

المحاضرة الثانية:

النظم والقرآن الكريم ص 9

المحاضرة الثالثة:

النظم وعلوم اللغة (علوم البلاغة) ص 13

المحاضرة الرابعة:

النظم وعلمي النحو والصرف ص 33

المحاضرة الخامسة:

النظم عند سيبويه ص 36

المحاضرة السادسة:

النظم عند المبرد وابن قتيبة ص 38

المحاضرة السابعة:

النظم عند أبي هلال

العسكري ص 43

المحاضرة الثامنة:

النظم عند عبد القاهر الجرجاني ص 45

المحاضرة التاسعة:

رأي الجرجاني في الفصاحة والبلاغة ص 66

المحاضرة العاشرة :

النظم ومعاني النحو عند الجرجاني ص 69

المحاضرة الحادية عشر:

نظرية النظم عند الجاحظ ص 75

المحاضرة الثانية عشر:

النظم عند ابن خلدون (الملكة والمنوال ومفهوم الشعر) ص 78

المحاضرة الثالثة عشر:

النظم ونظرية الأسلوب.....ص84

المحاضرة الرابعة:

النظم والنظريات الحديثة..... ص 94

قائمة المصادر والمراجع ص98

فهرس المحتويات.....ص101